جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

مرثيات هاشم الرفاعي
المحتوى والتشكيل الفني

الدكتور
عيسى محمد إبراهيم عفيفي
المدرس في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة قسم اللغة العربية وآدابها

العدد الثالث والعشرون
للعام ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م
الجزء الخامس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٩م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص

مرثيات هاشم الرفاعي المحتوى والتشكيل الفني

هذا البحث يتناول موضوع الرثاء لدى الشاعر العربي المعاصر هاشم الرفاعي (١٩٣٥/١٩٥٩م)، ويقوم بإبراز الدوافع والأسباب وكذلك المحتوى الموضوعي العام للمرثيات في الجانب الأول منه، ثم يركز على التشكيل الفني لهذه المرثيات في الشكل والمضمون بعـــد ذلك . وقد جاء البحث مبنياً على خطة تشتمل على مقدمة يعقبها تمهيد ثم فصل للمحتوى وآخـــر للدراسة الفنية وأخيراً كانت الخاتمة التي ضمت أهم النتائج ، وكان من أبرزها أن هذه المرثيات تمثل جانباً مهـــماً من التجربة الشعرية لدى هاشم الرفاعي، وأنه قالها للتعبـــير عن مشاعـــره ووجدانه وليس لغرض أو هوى شخصي، وأنها اشتملت على كثير من الموضوعات والمعاني المهمة ثم الخصائص والظواهر الفنية المتعددة في الشكل والمضمون.

الكلمات المفتاحية : مرثيات ، هاشم ، الرفاعي ، المحتوى ، الفن ، التشكيل الفني ، الشاعر ، هاشم الرفاعي ، الرثاء ، الشعر العربي ، الشعر المعاصر

الدكتور

عيسى محمد إبراهيم عفيفي

المدرس في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة قسم اللغة العربية وآدابها

Email : Dr.essaafify@hotmail.com

Abstract

Lamentations of Hashim El- Rifai
Content and artistic composition

The research discusses the lamentation side in the poetry of the contemporary poet Hashim El- Rifai in (١٩٣٥ – ١٩٥٩) . It shows the motivations and the reasons and the general thematic content of Hashim's lamentations . It also focuses on the artistic composition in the form and the content of this poetry . The research based on a plan that contains an introduction , a preface , a chapter of the content , a chapter of the artistic study and a conclusion . The conclusion contains many important outcomes . This lamentation is an important side of Hashim's poetry . Hashim wrote this type of poetry to express his feelings not for another reason . Hashim's poetry contains many important topics , properties and artistic aspects in the form and the content.

Keywords: **elegies, Hashim, Rifai, content, art, artistic composition, poet, Hashim Rifai, lamentations, Arabic poetry, contemporary poetry**

Dr.

Issa Mohammed Ibrahim Afifi

Teacher at the Faculty of Islamic and Arabic Studies

Department of Arabic Language and Literature

Email: Dr.essaafify@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد ،،

فيعد الشاعر هاشم الرفاعي واحدًا من أبرز الشعراء العرب الذين برزوا بمصر في منتصف القرن العشرين، وقد التزم بمنهج المحافظين المجددين فكراً وإبداعاً، وظهر ذلك جليًا في أشعاره التي ملأ بها الدنيا، وشغل الناس، حيث ترك ميراثًا كبيرًا من الشعر العربي الأصيل الذي يجمع بين المحافظة والتجديد، أي المحافظة على أهم التقاليد الفنية الأصيلة لشعرنا العربي القديم، ثم التعبير عن الواقع العربي والمصري الذي يعايشه، وهذا ما كان يحرص عليه المحافظون المجددون قبل ذلك وعلى رأسهم شوقي وحافظ.

وقد اشتمل هذا الشعر على كثير من الموضوعات والأغراض الأساسية المعروفة، ومن أهمها الرثاء الذي خصص له الشاعر مجموعة كاملة في الديوان، كما نشر بعضًا من قصائده الأخرى في غيرها، وهذه المرثيات بما تحتويه من الموضوعات وبما تقوم عليه من القيم الفنية وتعبر عنه من المشاعر الإنسانية الراقية توفر مادة كبيرة ومهمة لعملٍ بحثي؛ لذلك اخترتها موضوعاً للبحث والدراسة فيما يأتي، ومما حفزني لذلك أنني لم أر أحدًا – فيما أعلم– خصص لهذا المرثيات بحثاً نقدياً مستقلاً، كما أنني أردت قراءة هذه الأشعار قراءة تحليلية لإظهار ما بها من الخصائص والسمات والظواهر الفنية ثم تقديمها للشعراء الجدد ممن يبتغون الأصالة والتجديد معاً للاستفادة منها والاهتداء بها في شعرهم ومرثياتهم بصفة خاصة.

أما عن المنهج الذي تقوم عليه هذه الدراسة فهو التكاملي الذي يتخذ من النقد الفني للأدب وعناصره المتعددة أساساً له، ويستعين بعد ذلك بالمناهج النقدية الأخرى كالتاريخي والاجتماعي والنفسي وغيرها عندما يتطلبها البحث ليأتي بعد ذلك في صورة متكاملة.

وخطة البحث في هذا الموضوع تقوم على النحو التالي:

المقدمة: وفيها تناول الباحث أهمية الموضوع وأسباب اختياره له والمنهج الذي سار عليه ثم الخطة التي قام عليها البحث.

التمهيد: وفيه إطلالة سريعة وعرض موجز عن حياة هاشم الرفاعي وشعره ثم منزلته الأدبية لدي نقاد الأدب المعاصرين.

الفصل الأول: وقد خصص للحديث عن فن الرثاء ودوافعه لدي شاعرنا هاشم الرفاعي، ثم بيان أهم الموضوعات التي قام عليها هذا الفن مثل رثاء الأهل والأقارب والأصدقاء والمعارف والمدن والمؤسسات وتأبين الأعلام والرواد ورثاء النفس وتعزية الذات.

الفصل الثاني: وقد تعرضت الدراسة فيه لأهم العناصر الفنية للمرثيات مثل بناء القصيدة والمعاني الأفكار والأساليب والألفاظ والصور والأخيلة والأوزان الموسيقية لبيان خصائصها وإبراز أهم الظواهر الفنية فيها.

الخاتمة: وقد رصدت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة من خلال ما سبق عرضه قبل ذلك في البحث.

هذا وإني لأرجو من الله العلي القدير أن يلهمني السداد والصواب، وأن يوفقني لما يحب ويرضى، إنه تعالى نعم المولى ونعم النصير،،

الباحث

تمهيد

الشاعر هاشم الرفاعي *

(**حياته - شعره - منزلته**)

١- حياته: هو سيد بن جامع هاشم الرفاعي، وقد اشتهر باسم جده "هاشم" تيمنًا وتبركاً به؛ حيث كان صاحب فضل وعلم وجود ومكانة صوفية كبيرة داخل محافظة الشرقية وخارجها.

ولد شاعرنا هاشم الرفاعي في قرية أنشاص الرمل التابعة لمركز بلبيس بمحافظة الشرقية عام ١٩٣٥م، وفيها قضى حياته الأولى متنقلاً بين حقولها الفسيحة ومزارعها الخضراء الجميلة، كما نشأ في ظلال أسرة صوفية متدينة وشاعرة، فوالده هو الشيخ جامع الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية في أنشاص وما جاورها، وهو من العلماء والشعراء المعروفين.

وما إن تجاوز هاشم سن الطفولة الأولى حتى ألحقه والده بالكُتَّاب في إحدى القرى المجاورة لقريتهم، وفيه تعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب كما حفظ القرآن الكريم كاملاً في وقت قصير مثل كثير من إخوانه وأبناء عمومته آنذاك، ثم التحق في صباه بالتعليم المدرسي في بلدته، ولكنه تركه وهو على

(*) مراجع الترجمة: مقدمة ديوان هاشم الرفاعي " الأعمال الكاملة: أ / عبد الرحيم الرفاعي ص٧وما بعدها ط / دار الإيمان "المنصورة" رقم ١ عام ١٩٩٦م ، وهاشم الرفاعي: د/ حامد طاهر ص ٧وما بعدها نشر/ مكتبة الآداب "سلسلة شاعر ومختارات " رقم ١ د.ت ، والشاعر الشهيد هاشم الرفاعي : محمد كامل حته ط / دار المعارف سنة ١٩٦١م ، وشاعر الثورة في شعره الديني :أ/على الجمبلاطي: مجلة منبر الإسلام العدد /٥ "جمادى الأولى" عام ١٣٨٨هـ ص ٣١٦ / ٣١٩. وموقع " ويكيبيديا الإلكتروني " مادة "هاشم الرفاعي" وموقع " لها أون لاين الإلكتروني" مادة "هاشم الرفاعي"

أبواب الشهادة الابتدائية ليلتحق بمعهد الزقازيق الديني التابع للأزهر الشريف؛ وذلك في عام ١٩٤٧م.

وقد أمضى الشاعر بمدينة الزقازيق تسع سنوات كاملة حَصَل في أثنائها على الشهادة الابتدائية الأزهرية سنة ١٩٥١م، ثم في نهايتها على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة ١٩٥٦م، وفي هذه الفترة اتسعت مداركه العلمية بما كان يتلقاه من علوم الدين واللغة والأدب في المناهج الأزهرية على أيدي جمع كبير من مشايخ الأزهر وأساتذته، كما تفتحت مواهبه الأدبية والشعرية ثم وصلت إلى القمة، حيث أصبح شاعراً معروفاً.

وفي نهاية عام ١٩٥٦م انتقل إلى القاهرة ليلتحق بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، وفيها قضى حوالي ثلاثة أعوام دراسية حافلة، والتقى بكثير من أساتذتها الكبار في اللغة والأدب والدراسات الإسلامية، وتعلم على أيديهم، وتأثر بمناهجهم وآرائهم، ومن أبرز هؤلاء علي الجندي وعبد الحكيم بلبع وأحمد هيكل وسواهم.

وفي الإجازة الصيفية للعام الثالث من دراسته في هذه الكلية رجع هاشم الرفاعي إلى الريف في بلدته أنشاص الرمل لقضاء بعض الأيام عند أهله وأصحابه؛ وذلك ليسري عن نفسه، ويجدد نشاطه بعد عام طويل من الجد والمثابرة في تحصيل العلوم، ثم ليودع أهله قبل السفر لبعض المؤتمرات الشعرية الخارجية التي يمثل فيها مصر.

وهناك دفعته الأقدار لأن يشارك في خلاف بين شباب القرية، وقد أدى ذلك إلى شجار وعراك انتهى بمقتله على إثر طعنة سكين في صدره وجهها إليه بعض الشباب المأجورين، وذلك في الأول من شهر يوليو عام ١٩٥٩م.

٢- شعره: على الرغم من موت هاشم الرفاعي المبكر في سن الرابعة والعشرين، وأن حياته الشعرية لم تزد على عشر سنوات إلا قليلاً؛ نجد أنه قدم كثيرًا من المجموعات والقصائد الشعرية التي كونت ديواناً شعريًا ضخمًا ومتنوع

الأغراض، ومما يؤكد ذلك أنه ورد في أربع عشرة مجموعة شعرية مختلفة الموضوعات والأنواع والاتجاهات؛ فهي تقوم على أكثر موضوعات الشعر العربي المعروفة، وتشتمل على الشعر الغنائي والشعر المسرحي، وتلتزم بقيم التيار المحافظ المجدد في كل المجموعات إلا واحدة قامت على شعر الفكاهة والزجل، والتزمت باللهجة العامية، وقد وردت هذه المجموعات في ديوان جامع لأول مرة على يد شقيق الشاعر الأستاذ عبد الرحيم الرفاعي عام ١٩٩٦م وعمل على تحقيق هذا الشعر ودراسته والتقديم له.

من ذلك نرى أننا أمام شاعر فذ وموهبة فنية كبيرة أفل نجمها سريعًا لكنها ملأت الدنيا وشغلت الناس بما قدمت من قصائد وأشعار راقية وعظيمة، مثله في ذلك مثل مجموعة من الشعراء العرب المعاصرين الذين ذهبوا في ضحوة العمر النضير، وتركوا ميراثًا كبيرًا من الفن الشعري العربي الأصيل من أمثال فخري أبو السعود وفوزي المعلوف ومحمد عبد المعطي الهمشري وفؤاد بليبل وأحمد العاصي وابو القاسم الشابي والتيجاني يوسف بشير وصالح الشرنوبي وسواهم.(١)

أما عن أبرز الموضوعات الشعرية في هذا الديوان فتتمثل فيما يلي:

أ – الشعر الثوري الوطني
ب – الشعر القومي العربي
جـ – شعر الطبيعة والريف
د – الشعر الإسلامي
ه – شعر الرثاء
و– شعر الغزل
ز– شعر الهجاء
ح – شعر المديح

(١) انظر د/ محمد رجب البيومي: دراسات أدبية جـ ١ ص ٨٠ ط / مطبعة السعادة عام ١٩٨٢ م .

وهاشم في كل هذه الموضوعات يعمل على تحقيق أسس وخصائص مدرسة المحافظين المجددين في شعرنا الحديث؛ ذلك أنه ينتمي فكريًا ومذهبيًا إليها، فهو قد فتح عينيه على نماذجها وأشعارها التي كانت تدرس له في الأزهر الشريف، ثم في دار العلوم بعد ذلك، كما أنه كان من المعجبين بروادها الكبار من أمثال شوقي وحافظ ومطران وأحمد محرم وعلي الغاياتي وعلي الجارم وأحمد نسيم وأحمد الكاشف وسواهم، كما كان يحفظ كثيراً من آثارهم الشعرية الرائدة، ويحاول الاهتداء بها في صياغة قصائده التي تتابعت في منتصف القرن العشرين.

وتتمثل أسس هذه المدرسة في روعة الأداء الفني، والوهج الشعري الحار، وجلال الموسيقى الشعرية، وجزالة القاموس الشعري ومتانته ورشاقته، وعذوبة الصياغة الفنية، والتعبير عن واقع الشعراء وحياة شعوبهم وتصوير النضال الوطني وإيقاظ الهمم ... وكانت وسيلتهم إلى ذلك كله العودة إلى العصور الذهبية في الشعر العربي، وبخاصة العصر العباسي، وإحياء رموزها وتقاليدها الشعرية، وقوامها الألفاظ الحية القوية، والديباجة المتينة الرصينة، والموسيقى العذبة والصور البلاغية المبينة.(١)

٣ – منزلته: هاشم الرفاعي له منزلة كبيرة في ميزان النقد الأدبي الحديث، فقد أثنى عليه كثير من النقاد المعاصرين، ورفعوا من شأن شعره، وعدوه صاحب موهبة كبيرة في الشعر العربي الحديث، وذلك بما له – وهو الذي راح في ضحوة العمر النضير – من عشرات القصائد الشعرية الرفيعة؛ التي يعجز عنها كثير من الشعراء؛ فقد عالجت أهم الموضوعات الشعرية القديمة

(١) انظر د/ عبد العزيز الدسوقي: مدرسة البعث وأثرها في الشعر الحديث ص ٢٣ ط / الأمل للطباعة، نشر/هيئة قصور الثقافة " سلسلة / كتابات نقدية رقم ٩٥ " عام ١٩٩٩م وقاموس الأدب العربي الحديث: إشراف د/ حمدي السكوت ص ٧٦٢ ، ٧٦٣ ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب رقم ٢ عام ٢٠١٥م.

والمعاصرة، وكان ذلك بأسلوب عربي رصين ونظرات اجتماعية وإنسانية صائبة ، وصياغة فنية رفيعة ، ومن أبرز النقاد الذين تناولوه يأتي الدكتور عبد الحكيم بلبع، فقد قال عنه في تأبينه بمناسبة ذكرى الأربعين: "إنني أستاذه ومع ذلك أحفظ له جميع قصائده، وشعره يتميز بالموضوعية والعمق والحماس والرصانة، وهو لا يتعمد هذه الرصانة .."(١)

ويقول عنه الدكتور عبد الحي دياب في بعض قصائده: "وليس هنا شك في أن هذه القصائد تنبئ عن صدق في العاطفة وحرارة الانفعال الذي توحيه إلى القارئ تعبيراته الحماسية المباشرة، كذلك نجد أن الرفاعي يصلنا بالحياة من خلال شعوره الذاتي بها .."(١)

وأستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي اعترف بموهبته، وأثنى على شعره خلال حديثه عن الشاعر فخري أبو السعود الذي قرنه بمجموعة من الشعراء الشباب الموهبين والمماثلين له، وقد ماتوا جميعاً في ضحوة العمر النضير مخلفين وراءَهم تراثاً شعريًا رفيعًا يزهو به الأدب العربي المعاصر، وفي أثناء ذلك ورد اسم شاعرنا هاشم الرفاعي مما يدل على مكانته وشعره.(٢)

ومما قاله عنه الدكتور حامد طاهر مبيناً مكانته الرفيعة وخصائص شعره: " لقد بلغ هاشم الرفاعي في عدد كبير من قصائده مستوى الأداء الشعري المتكامل، أي الذي تتوافر له كل مقومات النجاح من خلال: الجملة الشعرية الأنيقة، والبناء الشعري المحكم، والرسالة الشعرية المؤثرة."

---

(١) جريدة الجمهورية العدد / ٢٠٢١ بتاريخ ١٩٥٩/٧/٣ م ص ٣ .

(٢) د/ عبد الحي دياب: مع الشعراء المعاصرين في مصر ص ٤٩ ط/ الدار القومية للطباعة "القاهرة" د.ت.

(٣) انظر د/ محمد رجب البيومي: دراسات أدبية جـ ١ ص ٨٠ .

ويقول بعد ذلك أيضاً: " أشعار هاشم الرفاعي من السهل الممتنع. أي الذي يبدو بسيطاً سهلاً، ويمكن الإلمام به لأول وهلة، ولكنه عند التأمل الدقيق يثبت أن وراءه عملاً جاداً مرهقاً وقراءةً متعمقةً في التراث العربي القديم والحديث، بالإضافة طبعاً إلى موهبة منحها الله تعالى لصاحبه."(٣)

وكذلك الأديب الكبير يوسف السباعي، فرغم ما قام بينهما من خلاف بسبب دعوة السباعي إلى اللهجة العامية، ورد هاشم عليه بقصيدة شعرية حول اللغة العربية الفصحى– رغم ذلك قال السباعي عنه في حفل تأبينه: "لقد سمعته ينشد شعره مرة واحدة؛ فأُخذت به، وأحسست أن الله منحنا به موهبة فذة، ولم أشك في أن صوته سيرتفع بيننا في كل حفل، ولكن القدر أبى إلا أن يكون هو نفسه موضوع الحديث في هذا الحفل .."(١)

ومما يؤكد على هذه المنزلة الشعرية الرفيعة أنه أبَّنَهُ جمعٌ كبيرٌ من الشعراء الأساتذة وغيرهم، وذكروا في أثناء قصائدهم التي تفيض حزناً وألماً على رحيله المفاجئ في مقتبل الشباب– ذكروا منزلته الشعرية الكبيرة، وأن الأدب العربي المعاصر قد خسر شعره الأصيل، وفقد علما كبيراً من أعلامه ورجاله، ومن أبرز هؤلاء الدكتور علي الجندي والدكتور أحمد هيكل والأستاذ شفيق جبري الشاعر السوري المعروف، ثم أخو الشاعر الأستاذ طلعت الرفاعي وغيرهم.(٣)

---

(١) د/حامد طاهر: هاشم الرفاعي ص١٢ ،١٣

(٢) أ/ مجدي الشهاوي: رسالة في ليلة التنفيذ ص ١٢/ ١٤ ط/ مكتبة الإيمان "المنصورة" رقم ١ عام١٩٩٣.

(٣) انظر/ المرجع السابق ص ١٢ وما بعدها .

الفصل الأول

المحتوى الموضوعي للمرثيات

تقديم:

الرثاء هو بكاء الميت والتفجع عليه وإظهار اللوعة لفراقه والحزن لموته وعَدّ خلاله الكريمة والإشادة بمناقبه وشمائله.(١)

وهو من أهم أغراض الشعر، وله ثلاث طرق معروفة هي الندب والتأبين والعزاء، والندب هو بكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت، فيئن الشاعر ويتفجع؛ إذ يشعر بلطمة مروعة تصوب إلى قلبه.

والتأبين ليس نواحًا ولا نشيجًا، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو، وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها؛ ولذلك يسجل فضائله، ويلح في هذا التسجيل.

والعزاء كما يقولون هو مرتبة فوق التأبين، وفيه ينفذ الشاعر من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة، والدعوة إلى الصبر والرضا لمن فقد عزيزاً فاجأه به القدر، فتلك سنة الكون.(٢)

وقد حفل شعرنا العربي بروائع هذا الفن منذ العصر الجاهلي حتى الآن؛ إذ شاركت فيه كل الأجيال الشاعرة في شتى العصور الأدبية لدينا، فكانوا يندبون الموتى أو يقفون على قبورهم مؤبنين لهم ومثنين على خصالهم، وقد يخلطون

---

(١) انظر د/ محمود عبد المنعم خفاجي و د/ صلاح عبد التواب: الحياة الأدبية في عصري الجاهلية والإسلام ص ١٢٥ ط / الكليات الأزهرية د.ت.

(٢) انظر د/ شوقي ضيف: الرثاء ص ٥ وما بعدها ط / دار المعارف رقم ٤ عام ١٩٨٧ سلسلة فنون الأدب رقم ٢ .

ذلك بالحديث عن الموت، وبيان ضعف الإنسان أمامه، وأنه المصير الأوحد لكل البشر.(١)

وهاشم الرفاعي كان واحدًا من أتباع المحافظين المجددين في العصر الحديث الذين أدلوا بدلوهم في هذا الغرض الشعري ، وقدم على قصر حياته الشعرية (١٩٤٨م / ١٩٥٩م) كثيرًا من القصائد والمقطوعات العظيمة التي ضمتها المجموعة الثانية عشرة من ديوانه(٢) هذا فضلاً عن بعض القصائد الأخرى التي وردت متناثرة بالديوان داخل المجموعات الأخرى مثل قصيدة رسالة في ليلة التنفيذ (د/ص١٦٦ وما بعدها) وقصيدة الأزهر (د/ص١٧٥ وما بعدها) وقصيدة الحياة (د/ص٣١٤ وما بعدها)، وقصيدة زفرة (د/ص ٣١٨ وما بعدها)، وفيما يلي عرض لدوافع هذه المرثيات وموضوعاتها:

أولاً دوافع المرثيات: كان لهذا الغرض الشعري لدى هاشم الرفاعي دوافع كثيرة من أبرزها ما يلي:

١ – الموت: الموت هو نهاية الحياة وبلوغ الأجل فيها، ويترتب على حلوله الحزن والحسرة والألم وغيرها من العواطف الإنسانية التي تدفع الشعراء إلى صياغة المراثي في الأهل والأصدقاء والشخصيات المقربة لديهم عند الموت " فحلول الموت ينقض الشمل، وينغص المسرة، ويذهب بالإلف، فيبعث في نفس الأديب ثورة، ويدفعها إلى مراجعة التأمل في الحياة، ويستخرج خير ما في النفس من صفات الوفاء والمودة وعذب الذكريات وخلجات الحنين"(٣)

---

(١) انظر د/ محمود حسن أبو ناجي: الرثاء في الشعر العربي ص ١٩ وما بعدها ط/ مكتبة الحياة "بيروت" رقم ١ عام ١٩٨١م .

(٢)انظر/ ديوان هاشم الرفاعي " مجموعة الرثاء " ص ٣٨٣ / ٤٠٤.

(٣) أ / فخري ابو السعود: مقال/ موضوعات الأدب في الأدبين " مجلة الرسالة العدد/ ١٩١ – ١٩٣٧/٣/١م،ص ٣٢٩"

وهذا ما حدث لدي هاشم الرفاعي؛ فقد حل الموت ببعض أهله وأصدقائه والمقربين منه، فأصابه ذلك بالحسرة والألم، ودفعه إلى مراجعة نفسه والتأمل فيما يمر به، ثم أخرج هذه التجارب في صورة مرثيات تعبر عن مدى الفجيعة بمن فقدهم، وأثر ذلك على نفسه، ومنها مايلي في وفاة والده:(١)

وَا حَـرَّ قلبى كيف يخطفك الردى ⁂ ويضم منك الجسمَ هذا البلقعُ ؟

لهفي على الدنيا نزول ولم تزل ⁂ تسقى كؤوس النائبات وتُجزع

كيف الرحيل عن الديار وأهلها ⁂ والكل بات من الأسى يتوجع ؟

وفتاكَ كيف تركته ؟ ولمن إذاً ⁂ يشكو المتاعبَ أو إلى من يفزع

٢ – التصوف والقيم الروحية : ولد هاشم الرفاعي في بيت صوفي عريق، فهو سليل أسرة عرفت بريادتها لطريقة من طرق التصوف، وهي الطريقة الرفاعية التي تنسب إلى الشيخ أحمد الرفاعي (ت ٥٨٠هـ) مؤسسها الأول في بلاد العراق في القرن السادس الهجري، وقد توارثت العائلة هذه الطريقة منذ ذلك التاريخ، وعملت على نشر مبادئها التي تقوم على الكتاب والسنة، وتنادي بتنقية التصوف من البدع والضلالات، وآخر من تولى هذه الطريقة أبوه عن جده، ثم أخوه الكبير الشيخ مصطفى الذي تخرج في الأزهر.(٢)

وقد أورثته هذه النشأة كثيرًا من مبادئ التصوف وروحانياته، كما حققت التوازن في وجدانه، فلا ينظر إلى حقائق الكون والحياة من جانب واحد، ولكنه كشأن المتصوفة يجمع في نظرته بين الجوانب المتقابلة، فإذا نظر إلى الحياة وثب إلى وجدانه شبح الموت، وإذا تراءى له الإشراق غامت نفسه بالأفول، ثم يكون بجانب ذلك كله الإلهام الذي يصل بين ضمير الشاعر المتصوف وضمير الغيب

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٨٦ .

(٢) انظر مقدمة الديوان ص ٧ وما بعدها، ود/ حامد طاهر : هاشم الرفاعي ص ٢٢.

حتى يستشعر الحقائق المحجوبة، فتراه ينعي نفسه، ويرثي شبابه في أكثر من قصيدة .(١)

فهذا ختام قصيدته التي صور بها أيام الطفولة وعهدها الممراح يقول فيه:(٢)

هي الأيام لا تُبقى عزيزاً ⁂ وساعات السرور بها قليلةْ

إذا نشر الضياءَ عليك نجمٌ ⁂ وأشرق فارتقب يومًا أفولهْ

وفي ختام قصيدته " بسمة الحياة " يَلْمحُ القارئ حديثًا عن الحياة والموت معاً في هذين البيتين:(٣)

تعالَيْ فالربى تهتز ⁂ بالأفراح والبشرِ

قريباً تَظْلُمُ الدنيا ⁂ وتمضي بهجةُ العمرِ

وفي قصيدته " رسالة في ليلة التنفيذ " يستهلها بنعي نفسه ورثاء شبابه لوالده الذي تخيل وجوده فقال له:(٤)

أبتاه ماذا قد يخط بناني ⁂ والسيفُ والجلادُ منتظرانِ ؟

لم تبق إلا ليلة أحيا بها ⁂ وأحس أن ظلامها أكفاني

ستمر يا أبتاه . لست أشك في ⁂ هذا . وتحمل بعدها جثماني

---

(١) انظر أ / على الجمبلاطي : "شاعر الثورة في شعره الديني" مجلة منبر الإسلام السنة /٢٦ العدد /٥ ص ٢١٦.

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٠٧ .

(٣) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٠١ .

(٤) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٦ .

٣ – الدافع الاجتماعي : شارك هاشم الرفاعي في بعض مناسبات التأبين التي كانت تقام بالزقازيق في المعهد الديني أو التي كانت تعقد بالقاهرة في جمعية الشبان المسلمين وغير ذلك، وكان يَعُدُّ في كل مناسبة قصيدة في رثاء الفقيد ممن تمر ذكراه، وعادة ما يكون من الأصدقاء مثل تأبينه لصديقه الأزهري أحمد عمر بمناسبة الذكرى الثانية لاستشهاده في عام ١٩٥٠ م، أو يكون من الرواد والمشهورين مثلما حدث في تأبينه للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي بجمعية الشبان المسلمين في سنة ١٩٥٧م بمناسبة مرور عشرين سنة على وفاته، ثم تأبينه للأديب والشاعر الكبير حفني ناصف في عام ١٩٥٩م بمناسبة مضي أربعين عامًا على رحيله.

ومما جاء في تأبينه لزميله الشهيد أحمد عمر الذي راح ضحيةً لشجاعته واستبساله في الدفاع عن معهده ضد جنود الملك فاروق الذين أتوا لاقتحام المعهد والقبض على المعتصمين به من الطلبة آنذاك، يقول الشاعر فيه:(١)

رددوا الأشعار في يوم الشهيدْ ⁂ وارفعوا الأعلام في يوم الفقيدْ

وابعثوا الإقدام حَيًّا باقياً ⁂ وانشدوا يا فتيةً لحنَ الخلودْ

وانثنوا تيهًا وقولا للملا ⁂ مَنْ بمجدٍ وعلاً عنا يزيدْ؟

نحن منّا درة المجد الذي ⁂ كان في جنبيه قلب من حديدْ

مَنْ يحاكي أحمدًا في بأسه ⁂ أو يداني ، من له العزم الوطيدْ؟

يومَ أن جاءوا لنا في عصبةٍ ⁂ لا ترى منهم سوى العاتي المريدْ

وقوله في تأبين الأديب الكبير مصطفى الرافعي:(٢)

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩١ .

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠١ .

من جانب الخلد في ظـــل النبينا ⁂ روحٌ أطلت على أَرجاء واديـــــنا
تصغى إلى كلمـــة التاريخ منصفة ⁂ جَرَتْ بها اليومَ أقـلامُ الوَفَيِّيـــنا
وتجتلـــي صفحة التقدير ناصعة ⁂ من بعد أن طويت بين الورى حيـــنا
قد فات صاحبَها التكريمُ عن حسدٍ ⁂ حَيَّاً ، فسقناه بعد الموت تـأبيـــنا

كما أن هاشم الرفاعي شارك في رثاء أهل ومدينة قنا حينما ضرب السيل بلادهم في منتصف الخمسينيات، ودمر بيوتهم وممتلكاتهم ، وحصد كثيـراً مـن الأرواح ما بين طفل صغير وشيخ كبير ورجل وإمرأة وشاب وفتاة وغني وفقير، فلم يفرق بين أحد منهم، وكان ذلك في عـام ١٩٥٤م، ومما جـاء فـي هـذه القصيدة:(١)

تخيلتهم والموت ينشب سيلَهُ ⁂ بأعناقهم مسنونةً من مخالـــبِ
وقد زمجر الدفَّاعُ فانهار شامخٌ ⁂ لبنيانهم ، واندك من كل جانـبِ
فيارُبَّ طفل تحت أنقاضِ منـزلٍ ⁂ تدقُّ عليه الأمُّ صـــدرَ النـوادبِ
تولت وفي الأضلاع نارٌ ولوعةٌ ⁂ بها الذعر قد أبداه خفقُ الترائـبِ
وربةِ خدرٍ كان يُخْفِـــي نقابُهـا ⁂ سنى البدر في ظل السيوف القواضبِ
تراءت لأبصار الجميع وأسفرت ⁂ مُرَوَّعة خافت ســـهام المعاطـــبِ
وذى فاقة في مركب الرعب قد بكى ⁂ بأعقاب مذخور من القوت ذاهـــبِ
فلم أدر هل سيل الدمار الذي بدا ⁂ يهددهم أم ذاك دمع المصائـــــبِ؟

وكذلك حينما بدأ المسئولون عن الأزهر الشريف فـي الخمسـينيات مـن القرن الماضي، ومعهم الوزراء المختصون تطوير الأزهر، فقرروا بعض العلـوم

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٧ .

الحديثة كالحساب والهندسة والعلوم البيئية واللغات وسواها، ولكن الشاعر رأى أن ذلك أدى إلى تراجع دور هذه المؤسسة العريقة لأنه يتم على حساب العلوم الشرعية والعربية بها، وفي هذا غبن وظلم لهذه العلوم الأصيلة، وليس إصلاحًا وتطويرًا كما يدعون، ومن هنا ثارت ثائرته، وقام برثاء الأزهر في قصيدة كبيرة قامت على المفارقة بين عهده الحاضر والعهود السابقة، ومما جاء في بدايتها:(١)

قف في ربوع المجد وابكِ الأزهرا ⁂ واندبه روضًا للمكارم أقفرا

واكتب رثاءَك فيه نفثة موجَعٍ ⁂ واجعل مدادك دمعك المتحدرا

المعهد الفرد الذي بجهاده ⁂ بلغت بلادُ الضاد أعرافَ الذُّرى

سار الجميع إلى الأمام وإنه ⁂ في موكب العلياء سار القهقرى

لهفي على صرح تهاوى ركنُهُ ⁂ قد كان نبعًا بالفخار تفجرا

ثانياً محتوى المرثيات:

١ – رثاء الأهل والأقارب: هذا هو الموضوع الأول في رثاء هاشم الرفاعي، وفيه قام بندب عدد من أهله الراحلين كوالده الشيخ جامع الرفاعي، وعمه الشيخ علي هاشم الرفاعي، ثم جده الكبير هاشم الرفاعي الذي جاء رثاؤه عَرَضًا في قصائده الصوفية التي كان ينشدها في ذكرى مولده، وأخيرًا تعزية ابن عم له في وفاة خاله.

ومعروف أن ندب الأهل والأقارب والنواح والتفجع عليهم شعرًا من أشهر موضوعات الرثاء العربي وأقدمها تاريخاً وأكثرها لوعة وتعبيراً عن المشاعر الحزينة لدي الشعراء العرب عند فراق الأحبة لهم كالآباء والأبناء والأخوة وغيرهم.(٢)

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٧٥ .
(٢) انظر د/ شوقي ضيف : الرثاء ص ١٣ وما بعدها .

وهذا ما ظهر في رثاء الأهل عند شاعرنا، فهو قد رثى والده عند موته عام ١٩٤٩م بقصيدة تفيض حزناً وألماً على فراقه، وتعبر عما أصابه من هذا الحدث الجلل وهو الصبي الذي لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره، وقد بدأها بحديث نفسي يصبر فيه نفسه، ويدعوها إلى الرضا بقضاء الله وحكمه فلا راد ، ولا مبدل لهما، وهو يذكرنا في البداية بمطلع العينية المشهورة لأبي ذؤيب في رثاء أولاده، ومما يؤكد على ذلك كله قوله:(١)

أمن المصاب وعُظْمه تتوجع ⁂ والعين منك سيولها لا تُقْطعُ؟
هذي الدموع أراك تذرفها سدى ⁂ كفكف دموعك إنها لا ترجعُ
ذهب الإمام فما رأيتُ لرده ⁂ سبلاً فهل تجدي الدموع وتنفع؟
ياليتها تجدى إذاً لرأيتها ⁂ بحرًا عجاجًا من عيونٍ ينبعُ
لكنه حكم الإله ، وهل له ⁂ قل لي بربك من يرد ويدفعُ؟

وبعد أن يدعو نفسه إلى الصبر كما رأينا يبين أثر هذه الفاجعة على نفسه، وكيف أنها أصابته باللوعة والحسرة، ومست حرارتها قلبه وجسده، ومن ثم أخذ يتوجع ويتحسر على هذا الرحيل الذي أصاب جميع الأهل بالحزن والأسى، وخصه بالمزيد، من ذلك أنه تركه صبياً دون سند أو معين يلجأ إليه عند الحاجة، ومع ذلك كتم حزنه في قلبه، يقول الشاعر:(٢)

وا حَرَّ قلبي، كيف يخطفك الردى ⁂ ويضم منك الجسمَ هذا البلقعُ ؟
لهفي على الدنيا نزول ولم تزل ⁂ تسقى كؤوس النائبات وتجزعُ
كيف الرحيل عن الديار وأهلها ⁂ والكل بات من الأسى يتوجع ؟

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٨٦ .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٨٦ .

وفتاكَ كيف تركته ؟ ولمن إذاً ⁂ يشكو المتاعب أو إلى من يفزعُ
تاللهِ قد ظلموه إذ قالوا له ⁂ في يوم موتك والأقارب جُمَّعُ
مات الذي يرعى صباك ولا نرى ⁂ عينيك تدمع ، أو نراك تفجعُ
حسبوا العيون تنم عن حزن الفتى ⁂ والحزن أقسى في القلوب وأوجعُ

ومن رثاء الأهل أيضًا قصيدته " فقيد أنشاص" التي قالها في رثاء أحد الأعمام الكبار من العائلة، وهو الشيخ علي هاشم الذي وافته المنية عام ١٩٥٤م، وفيها يندب الشاعر هذا الشيخ الوقور الذي قضى حياته الطويلة في خدمة الناس وإرشادهم إلى الخير والمعروف والتخفيف عنهم عند الملمات ومساعدة المحتاجين في الأزمات، ولذلك كله كان موته فجيعة كبرى لدى الشاعر وجميع الأهل والمحبين من أبناء القرية وغيرهم، يقول الشاعر:(١)

رحنا نشيع منك بحراً للتقى ⁂ في ضفتيه الجود والإكرامُ
نمشي وراءك والقلوب من الأسى ⁂ تَدْمَى ، وملء نفوسنا آلامُ
حَرَّ الأسى بين الضلوع كأنه ⁂ في القلب من هول المصاب ضرامُ
والعين تهمي، والدموع ذوارفٌ ⁂ والناس خلفك شفَّها الإيلام
فلئن بكوك توجعاً فلفقدهم ⁂ مَنْ كفكف العبرات وهي غمامُ
ولئن حَنَوا هاماتِهم فلطالما ⁂ خَفَضَتْ لمثلك في الحياة الهام
لمن العزاءُ أسوقه والكل في ⁂ جَنْبَيْه للخطب الأليم سهام

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٦ .

ثم أخذ يرثيه بذكر كثير من خصاله الحسنة التي كان يحرص عليها في حياته، ويعيش بها وسط الناس مثل المروءة والوفاء والنبل وخدمة الناس والجود بما يملك وغير ذلك مما جاء في قوله:(١)

بكتِ المروءة بعد موتك سيداً ⁂ وهوى بفقدك للوفاء إمامُ
وطوى الردى عَلَمًا بنبل خصاله ⁂ وَفَعَاله ، تتفاخر الأعلامُ
قالوا قضى العمر الطويل، فقلت في ⁂ خير الورى طالت به الأعوامُ
ومضى كما يمضي الكريم لقبره ⁂ فبكى عليه الخيرُ والإسلامُ
وتجهمت كل الوجوه ، ووجهُهُ ⁂ للقاءِ جنةِ ربه بسامُ

أما عن رثاء جده وسميه الشيخ هاشم الرفاعي الكبير فقد ورد عرضاً في كل رفاعياته التي كان يبدعها بمناسبة المولد الصوفي الذي كانت تقيمه الأسرة في كل عام بأنشاص، ففي هذه القصائد الكبيرة كان الشاعر يخصص جانبًا منها للحديث عن جده الراحل، وكذلك عن والده الخليفة له، لكن حديثه عنهما كان تأبينا لهما ليس إلا، بمعنى أنه كان يعدد الصفات الحسنة والخصال الطيبة لجده أو لأبيه ، ومما يمثل ذلك قوله في جده :(٢)

أبوهمْ إمامُ الهَدْيِ والجودِ هاشمٌ ⁂ كثيرُ الأيادي عاش للخير هاديا
همامٌ بنى للدين مجداً مؤثلا ⁂ وشيد صرحًا للحنيفةِ عاليا
تغنى مقيم في الديار ببره ⁂ ومن سار في الظلماء للبيد طاويا
يجود إذا ضنَّ الجواد بنفسه ⁂ ويرعى لحق الضيف مادام ثاويا
ولا خير إلا كان للخير رائداً ⁂ ولا جرح إلا كان للجروح آسيا

(١) ديوان هاشم الرافعي ص ٣٩٦ .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٠٠ ، ٣٠١

هو العِلْم والتقوى، به الخير والهدى ⁂ له الدين والدنيا، أنار الدياجيا

فهذا الذي إن عاش يحيا مكرمـا ⁂ وإن مات يمضي خالد الذكر باقيا

فنحن نرى الشاعر هنا يركز على صفات جده الطيبة التي عاش عليهـا، وكان بها مثالاً لأفراد عائلته وأبناء طريقته مـن بعـده مثـل الهدايـة والجـود والمحافظة على الدين والدعوة إلى الخير والمواساة والاتصاف بالعلم والتقـوى، ولذلك عاش مكرماً، ومات باقي الذكر مخلداً.

وهناك أيضًا مرثية صغيرة للشاعر، صاغها في تعزية ابن عم له في وفاة خاله، وفي بدايتها يبين فداحة الخطب الذي حل، وأنه شخصيًا قد تأثر به، وحزن له حزنًا عميقًا، وجرى دمعه مدرارًا، وفاض بحارًا، ثم يدعو ابن عمه إلى التجمل والصبر إلى نزل به القضاء، فليس منه مفر، ولا عنه محيص، يقول الشاعر:(١)

رأيت الخطب جَلَّ عن العزاء ⁂ ففاض الدمع ينطق بالرثـاء

ففاض الدمع من حزن بحارًا ⁂ كأن عيونـنا ينبوع مـاءِ

فيامَنْ قد حزنت لفقد خـالٍ ⁂ تجمـل إنه حكم القضاء

وليس لكائن حـيٍّ مفـرٌّ ⁂ لمـا حكم الإلهُ من الفناءِ

ثم يأتي تأبين هذا الفقيد بما كان يشتمل عليه في حياته من صفات النبـل والمكارم والعطاء والجود وغيرها من الصفات التي أفادت كثيرًا من النـاس فـي حياته، ولذلك تمنوا بقاءَه، ولكن المنية عاجلته، وأودت به، وأخيـرًا يـدعو الله بالصبر الجميل والجزاء الحسن عن هذه الفاجعة فيقول:(٢)

وددنا أن يعيش النبلُ دهرًا ⁂ وأن تحيا المكارمُ في ارتقاءِ

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٠ .

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٠ .

وكنا نبتغي للجود عمـــــــراً ⁂ ونرجو للندى طولَ البقـــاءِ

ولكن المنـــــيةَ عاجلتـــــنا ⁂ وأودت بالكريم أبي السخـاءِ

إلهي آتنا صبراً جميـــــــــلاً ⁂ وعوضنا به خيرَ الجـــزاءِ

والقصيدة على صغرها وكونها في التأبين والعزاء تبين ما كـــان يعتـــري كثيراً من أهل أنشاص من الحزن والأسى على رحيل هـــذا الفقيـــد، والـــدليل أن الشاعر صاغها بضمير الجمع للمتكلمين مثل: وددنا ، نبتغي ، نرجو، عاجلتنـــا ، آتنا ، عوضنا .. إلخ.

٢ – رثاء الأصدقاء والمعارف: وهو من موضوعات الرثاء المنتشرة في شعرنا العربي من العصر الجاهلي حتى وقتنا الحاضر، وقد شارك فيه جمع كبيـــر من الشعراء العرب على امتداد هذا التاريخ، ومن أوائلهم خفاف بن ندبة وربيعة بن طريق وكعب بن سعد الغنوي وأوس بن حجر وغيرهم.(١)

والعاطفة فيه لا تقل شأناً عن رثاء الأهل والأقارب، وبخاصة عند تعمـــق الصداقة وامتداد الصلات بين الشاعر وبين أصدقائه ممن ودعوا الحياة أو فقـــدوا أحدًا من الأهل والأتباع، عند ذلك يسخر موهبته في التعبير عن الحـــزن الكبيـــر الذي أصابه من جراء فقد الأحبة من هؤلاء الأصدقاء أو أحد أتباعهم.

وقد شارك هاشم في هذا الموضوع بعدد من القصائد التي عبر فيها عـــن مكنون حزنه على بعض أصدقائه المقربين أو أتباعهم، ومن أبرزهم الشهيد أحمد عمر زميله في المعهد الديني بالزقازيق الذي استشهد على يد الظلم والطغيان في أثناء الدفاع عن المعهد عند مهاجمة الأمن الملكي له لإخراج المعتصمين به مـــن الطلبة عام ١٩٥٠م. وكذلك زميله أبو الفتوح هلال الأزهري وابن قرية "سلامنت" المجاورة لقريته الذي توفى فجأة في عمر الشباب، ثم تعزيته للزميل محمد عطوة

(١) انظر د/ محمود أبو ناجي : الرثاء في الشعر العربي ص ٨٦ وما بعدها .

عندما فقد ابنته في قصيدة له تسمى "الزهرة الذابلة"، وأخيرًا رثاؤه لبعض علماء الدين الإسلامي من أهل القرية ممن كانوا يسخرون وقتهم ومالهم وعلمهم الواسع في خدمة الإسلام والمسلمين وهو الشيخ محمد طاحون، وقد كان من الجيران والمعارف المحبوبين لديه .

كان الشاعر في كل هذه القصائد الشعرية المتتابعة رمزاً للوفاء والإخلاص لمن زاملهم واختلط بهم من أصحابه أو معارفه، كما كان صاحب موهبة شعرية رفيعة تستطيع أن تختار من المعاني والأفكار والصور التي تتناسب مع كل قصيدة، هذا فضلاً عن إظهار نفسيته الحزينة لدي كل عمل منها، ومما يؤكد على ذلك قوله في رثاء زميله الثوري الشهيد أحمد عمر، وهو يواجه الجنود ببسالة للدفاع عن إخوانه ومعهده ومبادئه حتى سقط شهيدًا ما يلي:(١)

من يحاكي أحمدًا في بأسه ⁂ أو يداني ، من له العزم الوطيدْ
يوم أن جاءوا لنا في عصبةٍ ⁂ لا ترى منهم سوى العاتي المريدْ
فانبرى ليثًا لهم لم تثنه ⁂ قاذفات الموت في أيدي الجنودْ
وانطوى شهمًا كريمًا خالداً ⁂ تحت تاج الخلدِ في ظل الوَدُودْ
يا فتى الإقدام يا رمز الفدا ⁂ قد جرى الدمع دمًا فوق الخدودْ
سرت للعلياء وثاب الخطى ⁂ والعلا خير الأماني في الوجودْ
نَمْ قريرَ العين قد علمتنا ⁂ كيف بالروح لدى الكَرْبِ نجودْ

فهو يصف الشهيد في يوم مقتله بالشجاعة والبسالة والقوة في مواجهة الجنود العتاة، كما أنه لم يخش ما بأيديهم من القنابل والأسلحة، وظل يدافع حتى انطوى شهمًا كريمًا عند ربه، ثم أخذ يبين أثر ذلك على نفسه، وما سوف يحظى

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩١ .

به هذا الشهيد من الدرجات العلا، وما سوف يتركه من القدوة الطيبة لدي كل الشباب في الدفاع عن الأوطان والجود بالأرواح في سبيلها.

ومن النماذج هنا أيضًا قول هاشم في زميله أبي الفتوح هلال في اليوم الثاني من وفاته عام ١٩٥٤م ما يلي:(١)

في كل يوم بالفؤاد مرارةٌ ⁂ لفراق من يمضي من الأحبابِ
ويفتِّتُ الأكبادَ أن فراقهم ⁂ ورحيلهم عنَّا لغير إيابِ
فالنفس تجرعُ بعدهم كأس الأسى ⁂ مُرَّاً مذاقته كطعم الصَّابِ
والقلب يبكيهمْ دماً، والعين لا ⁂ تنفك أدمعُها كفيضِ سحابِ
أبا الفتوح لئن رحلت فإنما ⁂ رحلت سعادتنا على الأعقابِ
أيّ الورود غداة فقدك صوحت ⁂ وذوى بموتك أيُّ غصنِ شبابِ
أفهكذا تمضي ولم تنل الذي ⁂ تسعى إليه بعزمةٍ وطلاب
أمل تعلق بالحياة فما دنا ⁂ هل كان هذا العيشُ غيرَ سرابِ؟
يا أيها النائي وذكركَ ماثلٌ ⁂ في القلب يحكي راهبَ المحرابِ
لو كان يجملُ بي التصبر عن فتى ⁂ أجِدُ التصبَّرَ عنك غيرَ صوابِ
كيف السبيل إلى التجمل، والردى ⁂ أودى بصارمِ عزمك الوثابِ؟
وطوتكَ أيدٍ للمَنون وما طوتْ ⁂ غيرَ المؤمَّل، جامعَ الآدابِ

وفي هذا المقطع نرى لوعة الشاعر وحسرته على رحيل الأحبة، ومنهم صديقه الشاب أبو الفتوح، فقد فتت موتهم كبده، وجرعه كأس الأسى، وأبكى قلبه دمًا، وأفاض دموعه سيولاً، ثم يتحدث عن موت صديقه الذي سلبه السعادة في

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٤ .

أعقاب ذلك إلى الأبد، حيث رحل في عمر الشباب وقبل أن يحقق ما يأمله في هذه الحياة، فلم يكن وجوده سوى سراب ظهر ثم اختفى سريعًا، وأخيرًا يعرب عن عدم صبره على فراقه، فكيف يصبر على رحيل شاب فتى طوته يد المنون إلى غير رجعة؟ كما أنه كان مقصدًا لقضاء الحاجات وجامعًا لمكارم الأخلاق.

ومما قاله شاعرنا في رثاء الشيخ محمد طاحون أحد علماء الدين المستنيرين والمعروفين لديه في القرية ما يلي:(١)

أهاج لنا الحزنُ العيونَ البواكيا ⁂ وأسهد موتُ الشيخ منا المآقيا

بكيناه بالآلام ملءَ نفوسنا ⁂ وبالحزن قتالاً ، وبالدمع جاريا

ويا دهر ، لم تدرك فجيعتنا به ⁂ لقد كنت جباراً ، وقد كنت قاسيا

أحقًا إمامَ الخير أن لست عائداً ⁂ إلينا ، وأن لا ملتقى بك ثانيا؟

عزيز عَلَيَّ اليوم والخطبُ فادحٌ ⁂ مقامي وإنشاديك هذي المراثيا

وهو هنا يبين أثر موت هذا الإمامِ على كل المحيطين به ممن يعرفون فضله ومكانته، فقد أهاج موته عيونهم بالبكاء، وأسهد مَاقيهم، وأصابهم بالحزم والألم، ثم يعاتب الدهر على قسوته وتجبره عليهم بهذه الفجيعة، ويعلن في النهاية أنه على الرغم من الوفاء له بهذا الرثاء يصعب عليه هذا الموقف لأنه يدل على فراق الشيخ وعدم رجوعه.

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في تأبينه بذكر خصاله الحسنة وصفاته الطيبة مثل العلم والهداية والكرم والجود والسماحة وفعل الخير وغير ذلك، وهو يبدأ هذا التأبين بقوله:(٢)

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٠ .

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٠ .

ألا رحم الرحمن "طاحون" إنـــه ⁂ كثير الأيادي عاش للخير هاديا

همام بنى للدين مجداً مدعَّمـــاً ⁂ وشـيد صرحًا للحنيفـة عاليًـا

وكان إذا ما المزن ضنت بمائهـــا ⁂ هو القَطْرُ،كلا بل هو الغيث هاميا

متى تـأتهِ تلقى السماحة والندى ⁂ وإن عدتَ من دارٍ له عدتَ راضيًا

ولا خيرَ إلا كان للخير رائـــــدًا ⁂ ولا جُرحَ إلا كان للجُـــرحِ آسيـاً

٣ – رثاء الرواد والقادة: الرواد جمع رائد، والرائد هو من يتقدم القـوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث، والقادة جمع قائد وهو من يقود الجيش ونحوه.(١)

وعلى ذلك فالرواد والقواد مجموعة من القيادات الإنسـانية فـي شـتى التخصصات وظيفتها الهداية والإرشاد والتوجيه وتحمـل الأعبـاء والأخـذ بيـد الآخرين نحو الطريق الأمثل في الحياة.

ونظرًا لدورهم المؤثر في تلك الحياة الإنسانية فإن الشعر قد احتفى بهـم كثيرًا، ومن صور هذا الاحتفاء بكاؤهم عند الموت، وشعرنا العربي صنع ذلك منذ القدم، " فقد نظم في رثاء الملوك والسادة والأشراف وشيوخ القبائل، حيث كـان موتهم يمثل حدثًا عامًا لكل أفراد القبيلة أو المجموعة المتجانسة من أي شعب.(٢)

وقد شارك هاشم الرفاعي في هذا النوع من الرثاء، لكنـه قصـره علـى نوعية خاصة من الرواد، وتتمثل في رواد الفكر والأدب والفن بالإضافة إلى بعض أبطال الجيش، وهؤلاء هم الشاعر والمفكر الكبير حفني بـك ناصـف والأديـب العلامة مصطفى صادق الرافعي ثم الكاتب والناقد الفني صلاح ذهني، ومن قـواد الجيش البطل الشهيد أحمد عبد العزيز القائد الوطني المعروف في حروب تحرير فلسطين، ولعله خص هذه النوعية برثائه لما يلي:

---

(١) انظر المعجم الوسيط والمعجم الوجيز مادة " راد " و " قاد " .

(٢) انظر د/ محمود أبو ناجي : الرثاء في الشعر العربي ص ٩٦ .

- أنهم من أعلام وطنه مصر الذين يزهو بهم في شتى المواقع والمناسبات.
- إعجابه الشديد بمدارسهم واتجاهاتهم في الشعر أو الفن أوالوطنية.
- الاستجابة لدعوات التأبين الموجهة إليه من الهيئات الاجتماعية كجمعية الشبان المسلمين، ففيها قدم قصيدتيه عن حفني ناصف ثم الرافعي.(١)

والناظر في هذا الموضوع من شعر الرثاء عند هاشم الرفاعي يجد أنه أقرب إلى التأبين منه إلى الندب أو العزاء، ففيه يقدم لنا الشاعر بيانات متتابعة عمن يؤبنه في العمل الخاص به تتضمن أهم صفاته الشخصية أو أعماله الفكرية والأدبية أو بطولته، وفي أثناء ذلك قد يتطرق إلى بعض القضايا العامة، ولم نر في أثناء ذلك وصفاً كبيراً لذاته ومشاعره كما كان في الموضوعين السابقين، ومما يبين ذلك قوله في تأبين العلامة حفني ناصف ما يلي:(٢)

على سمع الخلود تركت لحناً ⁂ به التاريخ في الآفاق غنى
صحائفَ مشرقاتٍ من بيان ⁂ تَأَلَّقُ في الزمان فليس يفنى
عرفتك في ذرا العلياء سِفْرًا ⁂ سمتْ آياته لفظاً ومعنى
أكاد إذا قرأتك في رثاءٍ ⁂ أراك تعالج الحسراتِ حزنا
وألمس وحشةَ الدنيا إذا ما ⁂ شكوتَ من الحياة أسىً وغَبْنا
وإن صارحتَ بالوجدِ القوافي ⁂ أحسُّ بلوعةِ القلب المُعنَّى
وتطربني المرارة في عتاب ⁂ يساقُ إلى الصديق وقد تجنى
وأقطع خلفك الأميالَ شوقاً ⁂ لِأحيا في ربوع قنا وإسنا

(١) انظر تقديم القصيدتين في الديوان ص ٤٠١ ، ٤٠٣ .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٣ .

ففي هذا المطلع من التأبين يتحدث الشاعر عن شعر حفني ناصف، فهو اللحن الرفيع الذي يردده التاريخ، وهو في أسلوبه صفحات من البيان العربي الناصع الذي يسمو في شكله ومضمونه، ويتضمن كثيرًا من الموضوعات الشعرية الأصيلة المعالجة بطريقة عظيمة ومن أهمها الرثاء والشكوى والغزل والعتاب والحنين وغيرها.

ويتحدث بعد ذلك عن عمله بالقضاء الشرعي واتصافه بالصدق والأمانة والعدل وعدم التملق والنفاق وسواها، ثم يتطرق إلى قضية التجديد في الشعر العربي التي كانت في أوج قوتها آنذاك في حقبة الخمسينيات من القرن الماضي، وكان هاشم من المعارضين لها، وقد أبان عن ذلك في هذه القصيدة وغيرها.

وكذلك كان تأبينه للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي الذي أقيم في جمعية الشبان المسلمين في عام ١٩٥٧م بمناسبة مرور عشرين عامًا على وفاته، حيث ركز هاشم على سرد صفاته وأخلاقه وبيان أهم أعماله واتجاهاته الأدبية، وتطرق في النهاية إلى الهجوم الصارخ على المناوئين له والمختلفين معه في الفكر والأدب والشعر، ومما يمثل ذلك قوله:(١)

إني لأعجب من شادٍ به صممٌ ⁂ قد أسمع الكون تغريدًا أفانينا

كانت أناشيده أنغامَ عزتنا ⁂ ولم تزل معربات عن أمانينا

يا مبدعًا لمعاني الخير مشرقة ⁂ قد مات لكنه أحيا الملايينا

كم بيننا اليوم من حيٍّ ، كتابتُهُ ⁂ تميت كل شعور صالح فينا

قد جاء ما قلتَهُ في الحب مكرمةً ⁂ وهالةً من سَنًى تكسو المحبينا

ولم يكن كتفاهاتٍ تسير بنا ⁂ إلى انحلالٍ غوىّ كاد يطوينا

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

وليس من خط أفكاراً تصيدها ⁂ من الفراش كمن خط المساكينا

تلك الروائع قد خلفتها قمماً ⁂ من الفنون جَلَتْ أمجاد ماضينا

تألقت في ربى الإسلام معرفة ⁂ وأشرقت في فم الدنيا عناوينا

للدين والضاد قد سطرتها عُمُدًا ⁂ لَّما عرفتهما أقوى صياصينا

هذا من الذل والأغلال يعصمنا ⁂ وتلك تحفظنا رُوحًا وتكوينا

فهو– كما نرى– يركز على بعض أوصافه الخِلْقية "الصمم" التي لم تمنعه من إسماع الدنيا بأسرها تغريداته وأناشيده الشعرية الرائعة، كما كان مبدعًا لكثير من المعاني السامية الخيرة التي تحي الضمائر والنفوس لدي المتكلمين بخلاف غيره ، ثم يتحدث عما قدمه عن الحب في بعض مؤلفاته وعن المساكين وغيرها من الموضوعات التي قدمها في أعماله الأدبية والفكرية خدمة للدين واللغة.

ومما جاء عنده في رثاء الكاتب والناقد صلاح ذهني قوله:(١)

ترك الدنيا صلاحْ ⁂ ومضى عنا وراحْ

عصف الموت بنجمٍ ⁂ في سماء الفن لاحْ

بلبل بالروض شادٍ ⁂ طار مبسوط الجناحْ

ماعلا في الجو حتى ⁂ خرَّ مخضوبَ الجناحْ

شعلة للفن كانت ⁂ خيرَ رمز للنجاحْ

أطفأتها حين هَبّتْ ⁂ للردى تلك الرياحْ

ربَّ نقدٍ قد تبدى ⁂ منه بالحق الصراحْ

يعلن الرأي قوياً ⁂ ليس يخشى لوم لاحْ

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٣ .

وأقاصيـــــصُ تـراءت ⁂ مشرقات كالصـــــــباحْ

صَوْغُها صوغ جمـــــانٍ ⁂ نفحُها نفـــحُ الأقـــــاحْ

وهكذا مضى هاشم على نفس المنوال في تأبين الرافعي وناصف، غير أنه اعتمد هنا على لغة سهلة بسيطة تقترب من لغة الحياة اليومية لدى المصـــريين، كما اختار وزنًا قصيرًا هو مجزوء الرمل، أما عن التأبين فهو كما نرى يحتـــوي على نعي هذا الكاتب وبيان منزلته الأدبية ومنهجه النقدي وطريقته في صـــياغة الفن القصصي الرفيع لديه.

أما عن رثاء البطل أحمد عبد العزيز فقد ورد بمناسبة ذكراه الأولى عـــام ١٩٤٩م، وهو من المحاولات الأولى لدى هاشم، ومن ثم جـــاء ســـهلاً بســـيطاً ومعبرًا عن إعجابه الشديد بهذا البطل وحزنه على استشهاده، ويتمثل هذا الشعر في قصيدة ذات مقاطع منها قوله:(١)

أيها السائر عـــنـا ⁂ نحو جناتِ الخلـــــودْ

السلام عليك مـــنـا ⁂ يوم ضمتك اللحـــــودْ

فارسًا لفظاً ومعنى ⁂ كنت يا خير الأســـودْ

****

لست بالقائل شعرًا ⁂ فيه أبكى أو أنـــــــوحْ

إنني والجمع طرًا ⁂ كلنا اليوم جـــــــروحْ

لم تزريا ليث قبرًا ⁂ بل بِعَـــــــدْنٍ تستريحْ

****

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٨٨ .

كنت كالأُسْدِ قويـــاً ⁂ تصرع العاتـــي المريـد

عشت في الأذهان حيًا ⁂ خالدَ الدهر المديـــــد

أنت يا من كنت هديًا ⁂ في الوغي يهدي الجنـــود

****

٤ – رثاء المدن والمؤسسات: ومفهومه يتمثل في بكاء المدن والهيئات الوطنية والتفجع عليها شعراً حينما تتعرض للمحن والكوارث، أو تنزل بها النكبات والمصائب، أو تمتد إليها يد التخريب والتدمير من جهة ما.

وهذا الموضوع موجود في شعرنا العربي منذ القدم، حيث بكى أعلامه البلدان وما يتصل بها حين نزلت بها الحوادث القاصمة، أو ألمت بها بعض الدول الغاصبة، وفي كل مكان من العالم الإسلامي نجد هذا البكاء في الشرق والغرب، ففي الشرق بكى الشعراء القدماء بغداد والبصرة ومدن الشام، وفي الغرب بكوا مدن الأندلس وبلدانها حينما تساقطت في يد الإسبان، أما في العصر الحديث فقد اتسع هذا الموضوع لكثرة النكبات التي أصابت عالمنا العربي والإسلامي منذ بداية العصر، وأشهر البلاد هي أدرنة ودمشق ودنشواي وفلسطين وسواها.(١)

وقد شارك هاشم الرفاعي في هذا الموضوع بقصيدتين كبيرتين هما قصيدة "كارثة في قنا" التي قالها حينما ضرب السيل هذه المدينة المصرية الجنوبية في نهاية عام ١٩٥٤م، وأوقع بها كثيرًا من الخسائر في الأرواح والأموال، ثم قصيدة "الأزهر" التي صاغها في بكاء هذا الصرح الإسلامي الكبير عام ١٩٥٨م حينما تعرضت مقرراته الدراسية الأصيلة للظلم على يد بعض المسئولين آنذاك بحجة التطوير والتحديث. ودوافع الشاعر لهذا الموضوع كثيرة منها ما يلي:

---

(١) انظر د/ شوقي ضيف : الرثاء ص ٤٧ وما بعدها .

- تسجيل هذه المناسبات الأليمة التي مر بها الوطن في شعره.
- التعبير عن حالة الحزن والأسى التي تتملكه عند نزول النكبات ببلاده.
- إظهار روح الانتماء العظيم للأزهر الشريف وبثها في نفوس المتلقين.

وفي رثائه لمدينة قنا تصوير عام لمأساة السيل في البداية، ثم عرض شعري لأهم آثارها المدمرة في الأرواح والأبنية والأموال، ومتى حدث ذلك لأهل هذه المدينة؟ وماذا صنعوا عند وقوعه؟ ثم تأتي الدعوات لرفع هذا المصيبة، فليس لها من دون الله كاشفة، وأخيرًا يطلب من إخوة الوطن مَدَّ يد العون والواجب لهؤلاء المصابين المصريين من أخوتهم في الجنوب.

ومما جاء في تصويره لهذه المأساة في مطلع القصيدة ما يلي:(١)

أطل الردى من فيض تلك السحائب ⁂ ولم أرها قَبْلاً لغير المواهب

أكان فناءُ القوم مبدؤه " قنا "؟ ⁂ وقد صدقت فيه نبوءة كاذب(٢)

وهل تلك لليوم العظيم دلائل ⁂ سيتبعها فيه انتثار الكواكب ؟

أَلمَّ بها للرعب والموت نازلٌ ⁂ على قدرٍ مما قضى الله غالب

وطاف عليها طائفٌ لا ترده ⁂ قناة، ولا تخشى قراع الكتائب

إنها مأساة كبرى نزلت على أهل قنا من فيض السماء، وأدت إلى دمار بلادهم وخرابها مما جعلها كالبداية لفناء الكون أو وقوع القيامة، وقد سول له هذا التصور انتشار نبوءة لعراف آنذاك مفادها قرب فناء العالم، ثم يبين أن هذه المأساة بما اشتملت عليه من نوازل الرعب والموت هي مما قضى الله، وليس لقضائه راد ولا مبدل من الأسلحة والجيوش.

---

(١) انظر . د/ شوقي ضيف : الرثاء ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) حدثت هذه الكارثة في وقت انتشرت فيه نبوءة عراف بقرب فناء العالم " محقق الديوان "

ومما يصور به الشاعر أهل قنا عند بداية المأساة وما أصابهم من الفـزع والهلع والفرار والضيق ما يلي:(١)

قنا! هل رأيت الحشرَ؟ كيف لهوله ⁂ يفر الفتى عن صحبه والأقـاربِ؟
وهل أبصر السكان ما شأن يومـه؟ ⁂ وكيف ينال الطفلَ شيبُ الذوائب؟
قضوا ليلهم قد كحَّلَ النوم جفنهم ⁂ على أمـل بالخير لا بالنوائب
فما طلعت شمسٌ ولا أشرق الضحى ⁂ على غير فَـرَّارٍ من الخطب هارب
يكاد وهول النائبـات يُلفُّـهُ ⁂ تضيق عليه الأرضُ ذاتُ المنـاكب
وأصبح معهودُ المسالك أبحـرًا ⁂ تموج بِهَدَّار من الموت صاخـب
حنانيك رحمنَ السماءِ فقد كفـا ⁂ هُـمُ وكفانا مابدا من متاعب

إننا هنا أمام لوحة شعرية مكتملة عن صدى هذه النازلة على أهل قنا عند حلولها ليلاً وفي صبيحتها ، فقد كانوا كأهل الحشر يوم القيامة ، حيث انشغل كل إنسان بنفسه ، ولم يدر ما شأن يومه ، وأصاب الفزع الأطفال حتى الشيب ، وفي الصباح فروا جميعاً للنجاة من الأخطار والمهالك التي تحيط من كل جانب ، لكـن السيل حاصرهم .

وفي القصيدة الثانية " الأزهر " رثى الشاعر هذه الهيئة الإسلامية الكبرى التي يدين لها بالفضل، ففيها حصل علومه، وتفتحت واكتملت موهبته الشـعرية، ومارس السياسة والرياضة من خلال المعهد الـديني بالزقـازيق، هـذه الهيئـة تعرضت في الخمسينيات إلى فرض بعض العلوم التي كانت على حسـاب العلـوم الشرعية والعربية بها، ومن هنا كتب الشاعر هذه القصيدة الرثائية الغاضبة، وقد أقامها على المفارقة بين عهدين للأزهر، العهد الحاضر وهو عهد التراجع الـذي

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

يرثيه ، والعهد الماضي وهو عهد القوة والفتوة والرقي والازدهار الـذي يـذكره ويفتخر به كنوع من التأبين، ومما جاء في هذا الرثاء قوله:(١)

قف في ربوع المجد وابكِ الأزهرا ⁂ واندبـه روضـًا للمكارم أقفـرا
واكتب رثاءَك فيه نفثةَ موجـع ⁂ واجعل مـدادَكَ دمعَـكَ المتحـدرا
المعهد الفـرد الذي بجهـاده ⁂ بلغت بلاد الضاد أعراف الـذرى
سار الجميع إلى الأمام وإنـه ⁂ في موكب العلياء سار القهقـرى
لهفي على صرح تهاوى ركنه ⁂ قد كان نبعًا بالفخـار تفجـرا
من كان بهجة كل طرف ناظـر ⁂ عادت به الأطماع أشعث أغـبرا
ما أبقت الأيدي التي عبثت بـه ⁂ من مجده عرضًا له أو جوهـرا
لله ما أورى له في الشـرق مـن ⁂ مجـدٍ على الأيـام واراه الـثرى

والرفاعي في هذه الأبيات يدعو المتلقين على أن يشاركوه في رثاء الأزهر وندبه بالدموع الحارة لتراجعه عما كان عليه سابقًا، فقد سارت جميع الهيئات إلى الأمام في موكب العلا إلا هو سار القهقرى، ثم يبدي تحسره وألمـه علـى ذلـك الوضع لمعهده الذي كان نبعًا للفخار وبهجة للأنظار سابقًا، وأخيرًا يبين السـبب في ذلك التراجع ويتمثل في الأطماع الشخصية لدي من فرضوا التطوير الخطـأ، فقد عبثوا به، ولم يبقوا شيئًا من أمجاده الطارئة أو الأصيلة التي يحتسبها عنـد الله وحده، ويمكن لنا أن نستخلص بعض الأمور من هذه الأبيات تتمثل فيما يلي:

- أن الذي دفع الشاعر إلى رثاء الأزهر-الذي لم يمت ولن يمـوت-هـو روحه الشبابية الثائرة دائمًا، ثم الاعتراض على ما حدث للمناهج بهذا الأسـلوب الذي لا يجوز.

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٧٥ .

– أنه استدعى هنا فريدة أمير الشعراء أحمد شوقي في الأزهر، فمضى على منوالها، واستمد من ألفاظها وموسيقاها في قصيدته، يؤكد ذلك قول شوقي في المطلع:(١)

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا ⁂ وانثر على سمع الزمان الجوهرا

واجعل مكان الدر، إن فصلته ⁂ في مدحه ـ خرزَ السماءِ النيرا

واذكره بعد المسجدين معظمًا ⁂ لمساجد الله الثلاثة مكبرا

واخشع مليًا ، واقض حق أئمة ⁂ طلعوا به زهرًا، وماجوا أبحرا

فالقصيدتان – كما نرى في أبياتهما المختارة آنفًا – تتفقان في الوزن والقافية، وكذلك في بعض الألفاظ اللغوية، وإن اختلفتا في الموضوع، فعلى حين كانت الأولى في الرثاء؛ كانت الثانية في المديح والثناء.

٥– رثاء النفس: وهو نوع من الرثاء ينتقل فيه الشاعر من رثاء الآخرين إلى رثاء ذاته، وذلك حينما يحس بقرب الموت ودنو الأجل، وأبرز معانيه نعي النفس وبكاؤها وبيان الحالة الراهنة والمصير المقبل للشاعر ثم وصيته للمخاطبين بما يريده بعد موته.

وهذا الشعر له قيمته ودوافعه، فهو نوع من التجارب الإنسانية الصادقة التي تناجي الضمير، وتكشف مخبوء النفس، وتصور حالات الوجدان، وتبين مواقف أصحابها من الموت والحياة، والدافع إلى هذا النوع من الشعر هو حضور الموت ونزوله بالشاعر أو استحضار الشاعر له واستدعاؤه إياه– تخيلاً– والتأمل في حقيقته والتفكر فيما وراءَه.(٢)

---

(١) الشوقيات جـ ١ص ١٤١ ط/ مكتبة مصر (القاهرة) عام ١٩٩٣م

(٢) انظر د/ حسن عبد السلام: رثاء النفس في الشعر القديم/حولية كلية الدراسات الإسلامية للبنين بالقاهرة العدد / ١٤ عام ١٩٩٦م ص ٥٠٥ .

وقد احتفى به شعراؤنا العرب منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا، ومن أبرز أعلامه في العصر الجاهلي طرفة بن العبد وامرؤ القيس ولبيد ابن ربيعة وعبد يغوث الحارثي والمتلمس وحاتم الطائي وسواهم.(١)

وفي العصر الإسلامي عبد الله بن رواحة وخبيب بن عدي وغيرهما، وفي العصر الأموي الطرماح بن حكيم ومالك بن الريب وجعفر بن علبة الحارثي والعجاج وجحدر بن معاوية وسواهم، وفي العصر العباسي نرى جمعًا كبيرًا من شعراء هذا النوع أبرزهم أبو فراس وأبو العتاهية.(٢)

وكذلك في العصر الحديث اتسعت رقعة هذا اللون من الرثاء، وشارك في صياغته عدد كبير من شعرائنا العرب في كل الأقطار من أبرزهم أبو القاسم الشابي الذي عصف به مرض القلب وهو في ريعان الشباب، فعاش يبكي نفسه، ويندبها ندبًا حارًا في أغلب أشعاره.(٣)

وحينما نأتي إلى شاعرنا نجد أنه قد شارك أمثاله من المعاصرين في هذا اللون من فن الرثاء الذاتي، وقدم واحدة من أعظم القصائد وأكثرها شهرة في النصف الثاني من القرن العشرين، وهي قصيدة "رسالة في ليلة التنفيذ" تلك التي أخفى الشاعر زمن صياغتها ومناسبتها والدافع إليها، ولذلك كثرت الاجتهادات في تفسير هذا كله، وقد زاد الأمرَ غموضًا موتُ الشاعر المفاجئ بعد إلقائه لها في مؤتمر دمشق الشعري عام ١٩٥٩م بفترة وجيزة لا تتجاوز شهرين دون أن يفصح عن ذلك بشيء، والراجح أنه كتبها عام ١٩٥٥م على أثر رسالة تلقاها من زميل له ينتظر تنفيذ حكم الإعدام، ويوصى الشاعر بأن يسرى عن والده وعن

---

(١) انظر د/ محمد رمضان زامل: رثاء الذات في الخطاب الشعري الجاهلي ص ٤٠٩ وما بعدها ط/ هيئة قصور الثقافة رقم ١ عام ٢٠١٥م "سلسلة / كتابات نقدية رقم/ ٢٣١ .

(٢) ةانظر د/ حسن عبد السلام : رثاء النفس في الشعر القديم ص ٥٠٧ وما بعدها .

(٣) انظر د/ شوقي ضيف : الرثاء ص ٣٤ .

أمه، فألهمته هذه الرسالة وما أوحت بـه قصـيدته تلـك كمـا يقـول محقـق الديوان.[١]وقد أخفاها بعد كتابتها، ولم يظهرها إلا في ذلك المؤتمر المذكور آنفاً.

وبذلك تكون هذه القصيدة قد نبعت من تجربة غيرية، وهذا جائز في عالم الأدب، فالأعمال الشعرية الرفيعة لا تنبع من التجارب الذاتية فقط، بل هناك كثيـر من التجارب الأخرى التي تؤدي إلى نفس هذه الأعمال أيضًا شريطة أن يتمثلهـا الشاعر، ويعايش أحداثها، ويندمج فيها بمشاعره وأحاسيسه فتخرج إلى الوجـود وكأنها من تجاربه الشخصية، ومن أبرز هذه الأنواع التجربة الخيالية والتاريخية والأسطورية والاجتماعية وسواها.[٢]

وقد تمثل هاشم تجربة صديقه عن طريق الخيال، وعايشـها فـي ذهنـه ونفحها من روحه وفنه حتى أخرجها في هذه القصيدة التي عبرت عنـه وعـن صديقه وعن كل إنسان يعايش نفس الظروف والأحوال، وهذا إن دل على شـيء فإنما يدل على عبقريته وعلى سمو الأداة الشعرية لديه.

أما عن القصيدة ذاتها فهي نموذج فني رفيع في هذا النـوع مـن شـعر الرثاء في الشكل والمضمون، فمن حيث الشكل سخر الشاعر لها طاقته الإبداعية الأصيلة التي ارتفعت بالقصيدة لتجئ تعبيرًا رفيعًا عن تلك التجربة، ومـن حيـث المضمون فقد حقق الشاعر أهم المعاني في رثاء النفس، إذ إنه نعى نفسه لوالده في البداية مخبرًا إياه بأن موته أصبح قريبًا وأنه سيحمل جثمانه، ثم انتقل إلـى وصف لحظاته الأخيرة في ليلة التنفيذ، وأخيرًا عرج على الإعـدام نفسـه فـي صبيحة هذه الليلة، وفي أثناء ذلك كله وَصَفَ الزمان والمكان وما يدور في نفسه، ووصف مشاعره وذكرياته ومتطلباته الإنسانية الرفيعة، ومن ثم بدت القصيدة في

(١) انظر أ / عبد الرحيم الرفاعي: مقدمة الديوان ص ٦٢ .
(٢) انظر د/ محمد مندور: الأدب ومذاهبه ص١٢ وما بعدها، ط / نهضة مصر "القاهرة" د.ت .

شكل لوحة فنية متكاملة أخرجتها يدُ صناع، ولا عجب أن رأيناه يحصل بها على جائزة المجلس الأعلى للفنون والآداب بعد ذلك.

وقد جاء في المقدمة نعي نفسه لوالده على النحو التالي:(١)

أبتاه ؛ ماذا قد يخط بناني ⁂ والسيفُ والجلادُ منتظرانِ؟
هذا الكتاب إليك من زنزانةٍ ⁂ مقرورةٍ صخرية الجدرانِ
لم تبق إلا ليلة أحيا بها ⁂ وأحس أن ظلامها أكفاني
ستمر يا أبتاه. لست اشك في ⁂ هذا– وتحمل بعدها جثماني

والشاعر بدأ هذا النعي كما نرى بالتساؤل الذي ينم عن الحزن الذي يكتنفه بسبب تلك النهاية المفجعة التي تنتظره في صبيحة الغد، ثم يصف الزنزانة التي يحيا بها ليلته الأخيرة، فهي باردة الجو لا تطاق، وصخرية الجدران لا تختـرق، وليلته فيها شديدة الظلام ومصيرها إلى زوال ليحدث بعدها الإعدام، ويحمل الوالد في أعقابها الجثمان.

وفي العنصر الثاني يتناول الشاعر أشياء كثيرة تتصل بليلته الأخيرة، فيصور هدوء الليل القاتل والذكريات التي تصطرع في وجدانه والألم الذي يهده فينشد راحته في قراءة بضع آيات من القرآن الكريم، كذلك يصور شفافية النفس التي حل بها الخشوع فاهتز له كيانه، وترسخ إيمانه الذي لم يذق طعمه إلا أخيرًا في السجن حين علم نهايته المحتومة، وأخذ يقرأ في القرآن، ويتدبر آياته.. يقول الشاعر في ذلك.(٢)

الليل من حولي هدوءٌ قاتل ⁂ والذكريات تمور في وجداني
ويهدني ألمي ، فأنشد راحتي ⁂ في بضع آياتٍ من القرآنِ

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٦ .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٦ .

والنفس بين جوانحي شفافة ⁂ دَبَّ الخشوع بها فهزَّ كيانـــي

قد عشت أومن بالإله ولم أذق ⁂ إلا أخيرًا لـــذة الإيمـــانِ

كذلك يتناول الشاعر ما في الزنزانة من الطعام المر والسجان الفظ اليقظ والنافذة ذات القضبان الحديدية، ثم ما يدور في نفسه من همسات تدل على بشريته التي يصيبها الضعف أحيانًا، فتلومه على ثورته ضد الطغيان وعدم إذعانه مثل الجميع، ثم ترجع عن ذلك سريعًا، فتدفعه إلى تحقيق الغايات النبيلة وعدم التصفيق للباطل ... إلخ

ومن وصفه للطعام في السجن قوله:(١)

شكراً لهم ، أنا لا أريد طعامهم ⁂ فليرفعوه، أنا لستُ بالجوعانِ

هذا الطعام المر ما صنعته لي ⁂ أمي، ولا وضعوه فوق خـــوانِ

كلا ، ولم يشهده يا أبتي معي ⁂ أخـــوانِ لي جاءاه يستبقـانِ

ومن وصفه للسجان الفظ اليقظ وبيان شعوره نحوه قوله:(٢)

والصمت يقطعه رنين سلاسلِ ⁂ عبثت بهن أصابعُ السجـــانِ

ما بين آونة تمر ، وأختها ⁂ يرنوا إليّ بمقلتَيْ شيطـــانِ

من كوةٍ بالباب يرقب صيده ⁂ ويعود في أمن إلى الـــدورانِ

أنا لا أحس بأي حقدٍ نحوه ⁂ ماذا جنى؟ فتمسه أضغانـي

ومما يدور في جوانحه همسات نفسه باللوم له على هذا المصير الذي سيق إليه، ثم تراجعها عنه ودفعه للغايات الشريفة قوله:(٣)

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٦ .

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٦

(٣) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٧ .

ويدور همس في الجوانح، ما الذي ⁂ بالثورة الحمقاء قد أغراني؟
أوَلم يكن خيرًا لنفسي أن أرى ⁂ مثلَ الجميع أسيرُ في إذعانِ
ما ضرني لو قد سكت ، وكلما ⁂ غلب الأسى بالغت في الكتمانِ
هذا دمي سيسيل، يجرى مطفئاً ⁂ ما ثار في جنبيَّ من نيرانِ

وفي العنصر الأخير يركز هاشم على جريمة الإعدام التي ستلحق به صباحًا، ويكون عندها موته المحقق ورحيله عن الدنيا، ومن عجب أن ذلك سيحدث حينما تشرق الشمس، وتدب الحركة في الدنيا، ويتحقق التفاؤل باليوم الجديد وكأن الطبيعة لا تحفل به يقول الشاعر:(١)

أبتاه، إنْ طلع الصباح على الدنى ⁂ وأضاء نورُ الشمس كلَّ مكانِ
واستقبل العصفورُ بين غصونه ⁂ يومًا جديداً مشرقَ الألوانِ
وسمعتَ أنغامَ التفاؤلِ ثرةً ⁂ تجري على فم بائع الألبانِ
وأتى يدق كما تعود بابنا ⁂ سيدق بابَ السجنِ جَلَّادانِ
وأكون بعد هُنيهةٍ متأرجحاً ⁂ في الحبل مشدوداً إلى العيدانِ

ثم يوصي والده بالصبر والتجلد وعدم الاستسلام للأحزان والأشجان لأنه سيق إلى الموت مصفوداً غير مدان، وكل جريرته أنه كان محبًا للوطن ومدافعاً عنه، وقد تعلم ذلك منه منذ الصغر، يقول الشاعر في ذلك لوالده:(٢)

أنا لا أريدك أن تعيش محطمًا ⁂ في زحمة الآلام والأشجانِ
إنَّ ابنك المصفودَ في أغلاله ⁂ قد سِيق نحو الموت غيرَ مُدَانِ
فاذكر حكاياتٍ بأيام الصِّبَا ⁂ قد قلتَها لي عن هوى الأوطانِ

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٨.
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٨ .

ثم يرجو من والده في رسالته أن يطلب من الأم المكلومة بموته أن تعفو عنه وتسامحه على ما سبب لها من الأحزان التي لا تقدر عليها، وعلى عدم تحقيقه لرغبتها في زواجه وفرحها بذلك.. يقول الشاعر: (١)

وإذا سمعتَ نشيج أمي في الدجى ⁂ تبكى شبابًا ضاع في الرَّيْعانِ

وتكتمّ الحسراتِ في أعماقها ⁂ ألماً تواريهِ عن الجيرانِ

فاطلب إليها الصفح عني، إنني ⁂ لا ابتغي منها سوى الغفرانِ

مازال في سمعي رنينُ حديثها ⁂ ومقالها في رحمة وحنانِ

أبنيَّ: إني قد غدوت عليلة ⁂ لم يبق لي جلدٌ على الأحزان

فأذق فؤادي فرحةً بالبحث عن ⁂ بنت الحلال، ودعك من عصياني

ويختم الشاعر رسالته الرائعة ببيان أن ما سطره فيها ما هو إلا ما يدور في فكره العاني المهموم بالوطن وقضاياه، وإذا ما انتصر الحق والعدل في يومٍ ما على يد الجموع ضد اللصوص والقراصنة فسوف تذكره وتكبر همته طبقات الشعب المهضومة التي كان ينتسب إليها، ويدافع عنها، يقول الشاعر: (٢)

هذا الذي سطرته لك يا أبي ⁂ بعض الذي يجري بفكرٍ عانِ

لكن إذا انتصر الضياءُ ومُزّقت ⁂ بيد الجموع شريعةُ القرصانِ

فلسوف يذكرني ، ويكبر همتي ⁂ من كان في بلدي حليفَ هوانِ

وإلى لقاء تحت ظل عدالة ⁂ قُدسيةِ الأحكامِ والميزانِ

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٨،١٦٩

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٩.

ومما يتصل برثاء النفس عند هاشم الرفاعي أنه كان يأسى لها، ويعزيها عند نزول الملمات وحلول المصائب التي يؤمن بكثرتها في الحياة وتعددها وأنه ليس لشقاء الدنيا آخر، وأن ذلك كله قدر يسيره الله على البشر ولا مفر منه، ولذلك يجب التسليم والرضا والصبر.. يقول الشاعر في قصيدة له تسمى الحياة عن ذلك كله مايلي:(١)

الجرح في الأعماق غائرْ ⁂ والدمع في الآماق ساهرْ
وفؤادك المكلوم يخفقُ ⁂ في الدجى كجناح طائرْ
لا تقضِ حُزْناً إنها ⁂ كأسٌ تدور بها المقادرْ
قدرٌ يسيره الإله ⁂ على بني الإنسان دائرْ
هذى الحياة فهل بدا ⁂ لشقائها ياصاحِ آخرْ؟
تمضي بنا والأمها ⁂ تُ يَلدْنَ سكانَ المقابرْ
عيش الفتى فيها خيا ⁂ لٌ مَرَّ في ليلٍ بخاطرْ

ويؤكد ذلك أن الشاعر حزن في صباه بسبب بعض الإخفاقات الدراسية التي حلت به مع قدوم بعض الأعياد، فكتب قصيدة "أحزان" التي تعد من المحاولات الأولى له عام " ١٩٤٨م"، ومما جاء فيها معرباً عن أحزانه ومعزياً نفسه ما يلي:(٢)

عيدٌ بأيةِ حال عدت يا عيدُ ⁂ بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ
أتيت للناس لا لي إنني تعسٌ ⁂ قست عليه صروف الدهر ياعيد

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص٣١٤ .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٨٥ .

وكيف أفرح والأحداث قد تركت ⁂ بالقلب حزن وبالعينين تسهيد؟(١)
قد كنت أفرح يوم العيد من زمن ⁂ واليوم لا فَـرحٌ فالحظ منكـود
اليوم أبكى لخطب قد مُنيتُ به ⁂ والجسمُ صار من الأحزان مجهود

فهو في هذه الأبيات يبين حزنه الشديد وعدم فرحه بالعيد مثل الآخـرين؛ ذلك أنه قد قست عليه صروف الدهر ومحنه، فأصـابته بـالأحزان التـي أبكتـه وأجهدته، وشغلته عن السرور والفرح بالعيد، ولا يخفى علينا تأثره بالمتنبي في داليته المشهورة كما سنعرف فيما بعد.

ومما يبين رثاء نفسه وتعزيته لها أيضاً ما جاء في قصيدته " زفرة " التي قالها بعد فصله من المعهد الديني بالزقازيق وحرمانه من دخول امتحان الشهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٥٥م بسبب مشاركته في مظاهرة طلابيـة واعتصـامه بالمعهد مع زملائه احتجاجاً على ما زعمه المسئولون بتطوير الأزهر، وقد أصابه ذلك بالحزن الشديد، وأحس بضياع مستقبله، فكتب هذه القصيدة التي يبين فيهـا تراكم الأحزان لديه، وأنه واجهها بالصبر والتحمل وعدم الشكوى أو البكاء، وهو بذلك كله يرثى حاله، ويدعو إلى الرفق بها والشفقة عليها من عاديـات الـزمن، يقول الشاعر:(٢)

فرفقاً بقلبٍ صريعِ الأسى ⁂ كفاه الزمـانُ وعدوانُـــهُ
ألم تعلمي أنَّـهُ واتـري ⁂ وما انفـك تنزلُ أحزانُـــهُ
لبثتُ على ريبه صابـراً ⁂ يُجَرّعنِي المـرَّ خذلانُـــهُ
كتمتُ الشكاةَ على أنهـا ⁂ لَرَاحـةُ قلبي وسلوانُـــهُ

(١) في الشطر الثاني خطأن؛ حيث رفعت " حزن ، تسهيد " والصواب نصبهما، ويمكن التماس العذر للشاعر هنا لأن القصيدة من المحاولات الأولى له كما هو ظاهر.
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣١٨ .

وإني تحملتُ ما لا يُطَـــا ⁂ قُ لتقـتلَ ذا الحقدَ أضغانُـــهُ
وأُمسكُ عينيَّ أن تدمعـــا ⁂ وفي القلب قـــد ثار بركانُـهُ
أقولُ له خشيةَ الشامتين: ⁂ تجلـَّـدْ، فللمجـدِ أثمانُـــهُ
ويا دهر مهلاً فلســتَ الذي ⁂ تلين لدي الخطـبِ عيدانُـــهُ

ونظرًا لما أحدثته هذه القصيدة ذات المعاني الحزيـــنة وغيرهـا عنـد نشرها، ونظراً لبعض الشفاعات أيضاً لدى المسئولين الكبار آنذاك وعلى رأســهم كمال الدين حسين وزير التعليم وأنور السادات عضو مجلس الثورة فقد أعيد قيد هاشم، ورجع للدراسة بالمعهد، وحصل على الثانوية الأزهرية في العام الدراسي التالي(١٩٥٦م).

****

الفصل الثاني

التشكيل الفني للمرثيات

المبحث الأول: البناء الفني للقصيدة

بناء القصيدة الشعرية هو إطارها العام وما يشتمل عليه من أجزاء ومكونات، ومن أبرز عناصره المقدمة والموضوع والخاتمة.

أولاً المقدمة: وتتمثل في مطلع القصيدة، وقد اهتم به النقاد اهتمامًا كبيرًا فطالبوا الشعراء أن يبذلوا غاية الجهد في إجادته وإتقانه؛ علماً منهم بقوة الأثر الأول في النفس، وأنه يدفع السامع إلى التنبه والإصغاء إن كان جيدًا آسرًا، وإلى الفتور والانصراف إن كان ضعيفًا فاترًا؛ ولذا عني الشعراء به.(١)

وليس من عادة الشعراء العرب أن يقدموا قبل الرثاء نسيبًا كما هو الحال في أكثر الأغراض الأخرى، بل كانوا يدخلون إلى الموضوع مباشرة.(٢)

وحينما ننظر إلى مرثيات هاشم الرفاعي نجد أن مطالعها كانت قوية مؤثرة تأخذ بلب المتلقي وتستهويه إلى قراءة الموضوع حتى النهاية، ومن أسباب قوتها الصياغة الأسلوبية الفائقة ودخولها إلى الموضوع مباشرة أو إلى ما يتصل بالموضوع ويمهد له، ولم يخرج عن ذلك إلا في القليل النادر.

ومن المطالع التي تدخل إلى الرثاء مباشرة قوله في وداع والده:(٣)

أمن المصاب وعظمه تتوجع ⁂ والعين منك سيولها لا تقطع؟

---

(١) د/ أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٢٩٧ ط/ نهضة مصر "القاهرة" عام ١٩٩٤م .

(٢) انظر. ابن رشيق القيرواني: العمدة جـ٢ ص ١٥١ ت أ / محمد محيي الدين عبد الحميد ط/ دار الجيل "بيروت" د.ت.

(٣) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٨٦.

هذي الدموع أراك تذرفها سدى ⁂ كفكف دموعك إنها لا ترجـــع

ذهب الإمام فما رأيت لـــــرده ⁂ سبلاً، فهل تجدى الدموع وتنفع؟

وقوله في عزاء صديقه في وفاة خاله ما يلي:(١)

رأيت الخطب جل عن العزاء ⁂ ففاض الدمع ينطق بالرثـــاء

ففاض الدمع من حزنٍ بحارًا ⁂ كأن عيونـنا ينبوعُ مـــــاء

وقوله في رثاء الشيخ محمد طاحون:(٢)

أهاج لنا الحزنُ العيونَ البواكيا ⁂ وأسهد موتُ الشيخ منا المآقـــيا

بكيناه بالآلام ملء نفوســـنا ⁂ وبالحزن قتالاً ، وبالدمع جاريا

ومن المقدمات التي تدور حول معنى يتصل بالرثاء في القصيدة قوله فـــي تأبين صديقه أحمد عمر:(٣)

رددوا الأشعار في ذكرى الشهيدْ ⁂ وارفعوا الأعلام في يوم الفقيدْ

وابعثوا الإقدام حيًا باقـيـــا ⁂ وانشدوا يا فتية لحن الخلـودْ

وانثنوا تيهاً ، وقولا للمـــلا ⁂ من بمجد أو علا عنَّا يزيــدْ؟

فهو هنا يحث الحاضرين من شباب المعهد أن يرددوا وراءه الأشعار فـــي تأبين زميلهم البطل الشهيد أحمد عمر، ثم يتجه بعد ذلك إلى تأبينه فـــي ذكـــراه بسرد أهم صفاته البطولية.

ومن تلك المقدمات قوله في كارثة السيل في قنا:(٤)

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٠ .

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٠ .

(٣) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩١ .

(٤) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٧ .

أطل الردى من فيض تلك السحائب ⁂ ولم أرها قَبْلاً لغـير المواهـب

أكان فناء القوم مبدؤه قـنـا؟ ⁂ وقد صدقت فيه نبوءةُ كـاذب

يذكر الشاعر هنا أنه لم يعهد من السحب سوى الكرم والعطـاء، أمـا أن تهلك وتبيد وتدمر فهذا ما لم يره منها قبل ذلك، وقد كان هذا تمهيدًا للحديث عن مظاهر الدمار لمدينة قنا وتأبين أهلها.

وكذلك في رثاء ابنة صديقه وتعزية والدها في قوله:(١)

أنشودة في فؤاد الدهر غناها ⁂ وزهرة عبقت بالروض رياهـا

ففي هذه المقدمة يصور الشاعر الفتاة الفقيدة قبل الموت ليمهد لرثائهـا ويبين عظم المصيبة عند والدها.

وهكذا كان شاعرنا ماهرًا في مقدماته في شعر الرثاء، لكنه خرج عن هذا في بعض الأعمال لأنه أقامها على السردية والأسلوب العربي القريب مـن لغـة العامة وإن احتفى بالتصوير البياني فيها وذلك مثل قوله في رثاء صلاح ذهني:(٢)

ترك الدنيا صلاح ⁂ ومضـى عـنَّا وراحْ

عصف الموت بنجم ⁂ في سماء الفـن لاحْ

بلبل بالروض شادٍ ⁂ طار مبسوط الجـناحْ

وكذلك في بعض الأعمال الأخرى التي بدأها بالغزل أو الوقوف بالطلل مثل قصيدته زفرة " د/ص ٣١٨ " التي يعزى فيها نفسه، فقد تغزل في مطلعها بفتـاة قبل العزاء، ولعلها "الفتاة" كانت رمزاً لأمنيته في الرجوع للدراسة بعد فصله من المعهد، يقول هاشم في أول هذه القصيدة:

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٩ .

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٣ .

جمالُكِ يبـهر فنانــه ⁂ وسحرُكِ تقـهر ألوانــه

ثانيا: **الموضوع**: ومن أبرز مقاييسه في النقد الأدبي الوحدة، ولها أنــواع كثيرة من أبرزها الوحدة العضوية وهي أليــق بالشــعر الموضــوعي وأنواعــه المختلفة كالتاريخي والمسرحي والقصصي ثم الوحدة الموضوعية وهــي أنســب للشعر الغنائي الوجداني الذي يعبر فيه الشاعر عن مشاعره وخــواطره التــي لا تخضع لترتيب إجباري يلتزم به الشاعر ولا يتعداه.(١)

والوحدة الموضوعية تعني وحدة الموضوع أو وحدة الغرض الذي يــدور حوله حديث الشاعر مثل الغزل أو الرثاء أو المــدح دون أن يخــتلط أحــد هــذه الأغراض بغرض آخر معه في نفس القصيدة.(٢)

وحينما ننظر إلى شعر الرثاء عند هاشم الرفــاعي مــن خــلال الوحــدة الموضوعية التي تتناسب معه كما عرفنا آنفًا نجد أنه قد حقق هذه الوحــدة فــي قصائده القصيرة التي تبلغ خمسة عشر بيتًا أو تزيد قليلاً، وهذا شيء طبيعي لأن قصر النفس الشعري فيها مكنه من تحقيق ذلك كثيرًا، ومما يمثل هــذا الصــنيع عنده قصيدة عزاء " د/ص ٣٩٠ " وقصيدة صلاح ذهني " د/ص ٣٩٣" والزهرة الذابلة " د/ص ٣٩٩" وقصيدة فقيد أنشاص "د/ص ٣٩٦" وغيرها.

وفيما يلي عرض لقصيدته عزاء التي يعزي فيها ابن عمه في خاله:(٣)

رأيت الخطب عن العــــزاء ⁂ ففاض الدمع ينطق بالرثــــاء

ففاض الدمع من حزن بحارًا ⁂ كأن عيوننا ينبــــوع مــــاء

فيا من قد حزنت لفقد خــالٍ ⁂ تجمل إنه حكـــم القضـــاء

---

(١) انظر د/ محمد مندور:النقد والنقاد المعاصرون ص٩٠ ط نهضة مصر عام ١٩٩٧م.
(٢) انظر د/ طه أبو كريشة : في ميزان النقد الأدبي ص ٤٢ ط / المليجي عام ١٩٧٦م .
(٣) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٠ .

وليس لكائن حي مفـــــرٌ ⁂ لما حكم الإله مــن الفنـــاء

وددنا أن يعيش النبل دهرًا ⁂ وأن تحيا المكارمُ في ارتقـــاء

وكنا نبتغي للجود عمـــرًا ⁂ ونرجو للندى طول البقـــاء

ولكن المنية عاجلتـــــنـــا ⁂ وأودت بالكريم أبى السخاء

إلهي آتنا صبرًا جميـــلاً ⁂ وعوضنا به خير الجـــزاء

فهذه القصيدة– كما نرى – دارت حول موضوع واحد وهو الرثاء الـــذي يعزى به الشاعر قريبه في مصيبة مني بها، ويبدأ بمقدمة عن عظم تلك المصيبة التي حلت على الجميع فحزنوا لها، وجرى دمعهم بحارًا ، وقد دعا الشاعر صديقه إلى الصبر على حكم القضاء، فليس منه مفر ولا عنه مهرب، ثم يأتي ذكر الفقيد وأهم خصاله الطيبة التي كان يرجو لها البقاء لكن المنية عاجلته، وأخيرًا يخـــتم بالدعاء للجميع بالصبر وحسن الجزاء. وهكذا دارت أبيات القصيدة حول موضوع واحد من البداية حتى النهاية، وما حدث هنا تحقق في القصائد القصيرة الأخرى.

وقد برزت هذه الوحدة أيضًا في قصائده الطويلة التي زادت على الأربعين بيتًا مثل قصيدة رسالة في ليلة التنفيذ " د/ص ١٦٦ وما بعدها" فعلى الرغم مـــن طولها "٧١ بيتًا " فقد حرص الشاعر على أن يحقق الوحدة الموضـــوعية بهـــا، ومما ساعده على ذلك أنها تشبه الرسالة، بل إنها رسالة شعرية حقًا تقوم علـــى مقدمة ينعي فيها الشاعر نفسه لوالده، ثم عرض للموضوع والمتمثل في وصـــف حالته في الليلة الأخيرة له، ثم ما يحدث له في صبيحتها من الإعدام، وما يترتب على ذلك من دعوته لوالديه إلى الصبر والعفو، وأخيرًا كانت الخاتمة التي لخص فيها الشاعر ما قاله وبين مصدره، وقد سبق عرض هذه العناصر الموضوعية في الفصل السابق.[١]

(١) انظر ص وما بعدها من هذه البحث .

بل إن الدكتور عبد الحي دياب قد أثبت بالتحليل والدراسة تحقق الوحدة العضوية أيضاً في هذه القصيدة، ومما قاله:" والوحدة العضوية في هذه القصيدة واضحة كل الوضوح، إذ هي تنمو نموًا داخليًا حيًا يتخذ من التصوير النفسي والإحساس بالفجيعة مادة بنائه ونموه ..."(١)

وهكذا كانت وحدة الموضوع في رثاء هاشم الرفاعي في القصائد القصيرة والطويلة، أما المتوسطة فكان يحقق هذه الوحدة في بعض الأعمال مثل قصيدة عزيز يفارق " د/ص ٣٨٦، ٣٨٧ " وقصيدة دمعة على زميل راحل "د/ص ٣٩٤، ٣٩٥" وقصيدة كارثة في قنا " د/ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ "وغيرها.

وفي بعضها الآخر كان يخرج عن الموضوع الأساسي "الرثاء" إلى موضوعات جانبية مما يخل بمبدأ الوحدة الموضوعية فيها مثل قصيدته " في ذكرى الرافعي" التي خرج في أبيات منها إلى الحديث عن استنكار بعض المعاصرين للغة العربية والدين، وفي أخرى للحديث عن انتشار الشعر الحر وبيان رأيه فيه، ومما يؤكد على صنيعه هذا قوله في الجانب الأول:(٢)

فهل أتاك حديث القوم حين مضوا ⁂ في مصر يستنكرون الضاد والدينا؟
ضحالةٌ من ثقافات مترددة ⁂ في الغرب يمشي بها الإلحادُ تنينا
وأنفس مرضت، لم يشفِ علتها ⁂ هدى السماء ولا نصح المداوينا

وقوله في الجانب الثاني عن محنة الضاد " الشعر الحر" مايلي:(٣)

ومحنة الضاد مازالت تطالعنا ⁂ بها الصحافة أو تُزْجَى دواوينا
شعر إذا ما حججنا منه قائله ⁂ فبالجمود أو الإغلاق يرمينا

(١) مع الشعراء المعاصرين في مصر ص ٥٧ .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٢ .
(٣) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٢ .

لا تستبين سنا الإلهام فيه ولا ⁂ يرضى العرائس أو يرضي الشياطينا

لما بدا قلق الأوزان مضطرباً ⁂ فرت على خجلٍ منه قوافينا

ثم يختم بعد ذلك قصيدته هذه ببيتين يعود فيهما إلى موضوعه الأساسي في تأبين العلامة الرافعي.

وكذلك استرسل في قصيدته التي أبَّن فيها حفني ناصف عام ١٩٥٩م إلى الحديث عن خلو الساحة الأدبية آنذاك من رواد الأصالة، فلم يبق فيها إلا من كان أدبه هشاً ضعيفاً، ثم تحدث عن التجديد الحقيقي في الأدب وبين رأيه في ذلك، وهذا كله قد أخل بالوحدة الموضوعية في القصيدة، ومما يؤكد ذلك قوله:(١)

خلا الميدان إلا من نقيق ⁂ به كتابنا طلعوا علينا

فلا الأذهان تهضم ما قرأنا ⁂ ولا الآذان تقبل ما سمعنا

فإنَّا لا نرى التجديد هدما ⁂ لما عهد الجدود به إلينا

ولكنا نؤيده بناءً ⁂ ونكبره إذا ما كان فنا

وليس تطاولاً في غير نصح ⁂ له تعبوا ، ونحن به تعبنا

فما تجديدهم إلا انحراف ⁂ ولم نعرف من المسئول منا؟

من ذلك كله نرى أنه كان يقع في مأخذ عدم الوحدة الموضوعية في بعض الأعمال عن طريق الاستطراد أو تداعى المعاني، أما الوحدة العضوية فلا يسأل عنها هنا لأن شعر الرثاء غنائي وجداني وليس قصصياً موضوعيًا، ويناسبه الوحدة الموضوعية ليس إلا.

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

ثالثاً: **الخاتمة**: وهي الجزء الأخير في القصائد الشعرية، والأدباء يعنون به عناية كبرى؛ إذ يرونه آخر ما يبقى في الأسماع، ومن ثم حرصوا على أن يضمنوه المعنى البديع واللفظ الحسن والحكمة والدعاء وغير ذلك.(١)

وبالنظر إلى شعر الرثاء عند هاشم الرفاعي نجد أنه اشتمل على كثير من الخواتيم التي اجتهد في إبرازها في صورة لغوية رفيعة ومعان سامية لإحداث التأثير المطلوب، ويمكن تقسيمها على النحو التالي:

١- قصائد انتهت بالدعاء وقد وردت كثيرًا في رثائه، ومنها قصيدته في رثاء والده والتي انتهت بقوله: " د/ص ٣٨٧ "

فاذهب عليك من الإله تحية ⁂ ما بدد الظلماءَ فجر يسطع

وعزاؤنا أن سوف يجمعنا الفنا ⁂ بك ، فالفناء مفرق ومجمع

وقصيدته في عزاء صديقه في خاله التي ختمها بقوله : " د/ص ٣٩٠ "

إلهي آتنا صبرًا جميلاً ⁂ وعوضنا به خير الجزاء

وقصيدته التي رثى فيها زميله أبا الفتوح وختمها بقوله : " د/ص ٣٩٥":

يا رب ألهمنا وعوضنا به ⁂ صبرًا وسلوانًا وحسن ثواب

وقصيدته في رثاء ابنة صديقه الذي أنهاها بقوله: " د/ص ٣٩٩ ":

يا نضر الله قبرًا ضم أعظمها ⁂ ويا عطر الله بين الترب مثواها

٢- قصائد تنتهي بالثناء على الفقيد، ومن أبرزها " رثاء عالم " المنتهية بقوله:" د/ص ٤٠٠ "

عليه سلام الله، كم كان ذا تقى ⁂ وكم كان برًا ، للحوائج قاضيا

قضى عمره مثل الزهور، فعيشها ⁂ قصير، ولكن تترك العطر زاكيا

---

(١) انظر د/ أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٣١٢ وما بعدها.

وقصيدة في ذكرى الرافعي التي ختمها بالثناء عليه فقال:" د/ص ٤٠٢"

إن اكتفينا بما سقناه تكرمة ⁂ للرافعي فقد قلت جوازينا

فكرموه بأن تحيا له مثل ⁂ عليا، إذا هي حيَّت سوف تحيينا

ثم قصيدة حفني ناصف التي أنهاها بقوله: " د/ص ٤٠٤ "

أولئك معشر كانوا كراما ⁂ فعزوا في ظلال المجد شأنا

كذلك كان في دنياه حفني ⁂ فلو نطق الزمان عليه أثنى

وقصيدة صلاح ذهني التي انتهت بالثناء عليه وإظهار نفسية الشاعر الحزينة على فراقه، يقول الشاعر: " د/ص ٣٩٣ "

في جوار الله شهم ⁂ عاش ينبوعَ الكفاحْ

قد تولى وعليه ⁂ من سنا الفن وشاحْ

ما استرحنا حين أودى ⁂ والذي مات استراحْ

٣- وهناك قصائد أخرى ختمها الشاعر بمعان مختلفة عما سبق مثل قصيدة رسالة في ليلة التنفيذ التي أنهاها بوداع والده، فقال: " د/ص ١٦٩"

وإلى لقاء تحت ظل عدالة ⁂ قدسية الأحكام والميزان

وكذلك قصيدة فقيد أنشاص التي أنهاها بوداع عمه الفقيد محملاً إياه السلام إلى كل الأحبة الراحلين فقال: " د/ص ٣٩٦ "

بجوار ربك نم ، فقد أسهدتنا ⁂ وأخو الأسى والحزن كيف ينام؟

واحمل إلى الأحباب عطر تحية ⁂ إذا ما أقمت هناك حيث أقاموا

ومن القصائد التي ختمها بوصية عظيمة قصيدة الشهيد أحمد عمر، حيث قام بحث زملاء الشهيد على الاتحاد وعدم الاختلاف لتحقيق القوة وإدراك المعالي، وفي ذلك يقول " د/ص ٣٩١ "

أجمعوا الآراء فيما بينكم ⁂ وارفعوا الرأس لنبني من جديدْ

فانقسام الرأي داء قاتل ⁂ إن أصاب القومَ ، فالويل شديدْ

واعلموا أن المعالي سلم ⁂ واتحاد العزم مفتاح الصعودْ

وهكذا تعددت أشكال الخواتيم في رثاء الرفاعي، وقد وصلت إلى القمة بما تضمنته من أسلوب رفيع ومعانٍ سامية متعددة، ولذلك تحدث تأثيرات كبيرة في المتلقي وتجعله يحفظها ويتذكرها، ومما زاد من قيمتها أنها كانت في أغلبها كالنتيجة المنطقية لما تقدمها من المعاني والأفكار بالمرثيات.

المبحث الثاني : الأفكار والمعاني

الأفكار هي مضمون كل عمل أدبي ومحتواه، هي المعاني التي تترجم عنها الصياغة الفنية، وكما أن النغم الموسيقي يعبر عن لحن، كذلك فإن الأداء التعبيري بالكلمة يعبر عن فكرة يريد الأديب الإفصاح عنها.(١)

والفكرة ضرورية للأدب، ولا يشترط فيها أن تكون مخترعة أو غريبة، بل يكفي الأديب في موضوعه أن يأتي بالمعاني المتداولة، ثم يخرجها في عمله مبللة بشعوره وعاطفته ومصبوبة في خياله.(١)

وفن الرثاء منذ كان عند العرب يدور حول معان معروفة ومشهورة منها الحزن والحسرة والألم والتفجع وإظهار اللوعة على الأموات، كذلك ذكر خصال الفقيد الطيبة وسلوكه وسيرته الحياتية، ثم ضرب الأمثال وذكر العبر وطلب الصبر والاتعاظ بالماضين، وأخيرًا ما يأتي في الختام من الحكمة والدعاء والوداع والنصائح وسواها.

وهذه المعاني هي التي قام عليها شعر الرثاء عند هاشم الرفاعي كما عرفنا ذلك فيما سبق عند عرض موضوعات هذا الفن، أما عن خصائص وسمات تلك المعاني فيمكن بيانها فيما يلي:

١ – الوضوح وعدم الغموض: وهذا بارز في كل مرثيات هاشم الرفاعي وما اشتملت عليه من معاني الندب أو التأبين أو العزاء، ومن يقرأ قصائد الرثاء في الأهل والأقارب أو الأصدقاء والمعارف أو غيرها من الموضوعات الأخرى سرعان ما يفهم معانيها التي تدور غالبًا حول معاني الحسرة والألم والتفجع على

(١) د/ مصطفى أبو كريشة : في ميزان النقد الأدبي ص ٣٧ .
(٢) انظر د/ شوقي ضيف: في الأدب والنقد ص ١٤ ط/ دار المعارف "القاهرة" عام ١٩٩٩م .

الراحلين منهم، ولا يجد فيها تعقيـــــدًا أو غموضًا يحول دون فهم هذه المعان، ومما يمثل ذلك قوله في ندب والده:(١)

أبتاه ، شعري لستُ أملك غيره ⁂ ماذا عسى غير الرثاء سأصنعُ؟
هذا رثائي والفؤاد كأنـــه ⁂ عــينٌ لها الدمُ والحشاشة أدمعُ
ما كنت أحسب أنني سأقوله ⁂ يومًا من الأيـــام ، فيــه أوَدّعُ
لكنها الأقدار هذا دأبـــها ⁂ تغتـــال منا من تشاء وتنــزع
إن تضحك اليوم إمرأً وتسره ⁂ فغـــدًا إليه المبكيات ستســرع
وإذا سقته اليوم شهدًا ، في غدٍ ⁂ يأتيــه كأس النائبات المتــرع

فهذا المقطع يحمل معاني الحسرة والألم والتفجع على الوالد الراحل، كمـــا يتضمن الكشف عن موقف الشاعر تجاه هذا الحدث المؤلم الذي حل بوالده، فهـــو ضعيف لا يملك سوى الشعر الذي يرثيه به، أما دفع الموت فلا يستطيع لأنه مـــن فعل الأقدار التي تقتل وتنزع وتضحك وتبكى وتسعد وتحزن، وكلها معان واضحة ومعروفة وليس فيها غموض أو تعقيد، ومن ثم يفهمها أغلب المتلقين لها.

ومما يبين سمة الوضوح وعدم التعقيد في معاني الرثـــاء لـــدي هاشـــم الرفاعي أيضًا قوله في تأبين الشيخ محمد طاحون:(٢)

وكم من صروح للهداية والتقى ⁂ بناها ـ له الحسنى ـ وأعلى المبانـيا
عرفنا له في كل مكرمة يـــدًا ⁂ ونعلمه للبذل في الخير ساعـــيـا
وما كان فيض النبل منه تطبعًا ⁂ ولكنه طبعٌ ، به عاش حالـــيـا
جوادٌ عهدناه إلى البر مسرعًا ⁂ إذا غيره في البر أبدى التوانـــيـا

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٠ .

عظيمٌ رفيعُ القدر يسعى إلى العلا ⁂ ويعشق في نفع الأنام التفانيا

وهمته في الحق دون ثباتها ⁂ ثباتُ قَوِيٍّ الطودِ الذي بات راسيا

ففي هذا التأبين للشيخ يعدد هاشم أهم المعاني الخلقية التي كان يحرص عليها الفقيد في حياته، من أبرزها إقامة المنشآت وبذل الخير والنبل والجود ونفع الناس والدفاع عن الحق وغيرها من المعاني الواضحة في هذه الأبيات.

وهكذا كان شاعرنا في كل مرثياته يحرص على الوضوح وعدم التعقيد في المعاني، ولعل ذلك يرد إلى إيثاره الألفاظ والأساليب السهلة، وابتعاده عن الخشونة والرمزيات في التعبير وعدم المبالغة في الصور والمحسنات البديعية، وإلى طبيعة فن الرثاء التي تقتضي الوضوح وعدم التعقيد في كل عناصره .

٢- الصدق الفني: ويعنى به صدق التجربة الشعرية أي مطابقتها لوجدان الشاعر وتعبيرها عن حقيقة مشاعره وانطباعاته، فإذا خلت من هذا الصدق كانت زيفًا وبهرجًا وسقطت قيمتها.(١)

ومعاني الرثاء لدى هاشم كانت قائمة على هذا الصدق ومعبرة عن وجدانه ومشاعره ومبللة بعواطفه الحزينة وذلك في كل الموضوعات الخاصة بهذا الموضوع الشعري، وتبلغ قمتها في تجاربه الخاصة برثاء النفس ثم رثاء الأهل والأصدقاء المقربين وأخيرًا رثاء المدن والمؤسسات.

ومما يبين صدق المعاني في رثاء الذات أنها كشفت عن حالته النفسية السيئة وكانت معادلاً موضوعياً لما يدور في الذات الحقيقية، ومما يؤكد ذلك قوله في وصف النفس وما يدور فيها قبل الإعدام ما يلي:(٢)

---

(١) انظر د/ السعدي فرهود: قضايا النقد الأدبي الحديث ص ٨٦ ط/ مطبعة زهران القاهرة، عام ١٩٦٨م.

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٦٦ .

الليل من حولي هدوءٌ قاتـــــل ⁂ والذكريات تمور في وجداني

ويهدني ألمي ، فأنشد راحـــــتي ⁂ في بضعِ آياتٍ من القـــــرآنِ

والنفس بين جوانحي شـــــفافةٌ ⁂ دب الخشوعُ بها ، فهز كياني

قد عشت أومن بالإله ولـــم أذق ⁂ إلا أخـــــيراً لـذة الإيمـان

والمعاني هنا تتبدى في هدوء الليل، وغليان الذكريات وشدة الألم والراحة النفسية في قراءة القرآن وشفافية النفس وخشوعها وازدياد الإيمان ولذته في السجن.. هذه المعاني جميعًا تعرب عما يدور في نفسه حقاً، وتظهر مشاعره وانطباعاته الحزينة في ليلته الأخيرة قبل الإعدام مما يؤكد على صدقها.

وكذلك قوله في رثاء عمه:(١)

نمشي وراءَك والقلوبُ من الأسى ⁂ تَدْمَى، ومـلءُ نفوسنـا آلامُ

حَـرُّ الأسى بين الضلوع كأنـه ⁂ في القلب من هول المصاب ضرامُ

والعين تهمي، والدموع ذوارفٌ ⁂ والناس خلفك شفِّـها الإيـلامُ

لقد عبرت الأبيات بمعانيها عما يدور في النفس من مشاعر الحزن والحسرة على الفقيد، فالقلوب حزينة، والنفوس مكلومة، والعيون باكية، والدموع غزيرة، والناس أصابهم الهزال من عظم المصيبة وغيرها من المعاني التي عكست الحالة النفسية السيئة للشاعر المكلوم وجميع الأهل كذلك مما يدل على صدقه في مشاعره.

٣ – التأثر بالمعاني الإسلامية: من يقرأ قصائد الرثاء لدي هاشم الرفاعي، ويدقق في معانيها يجد أنها متأثرة إلى حد كبير بالمعاني الإسلامية، وهذا شيء طبيعي لأنه نشأ في بيت صوفي كبير يحافظ على الدين، وحفظ القرآن الكريم في

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٦ .

صغره، والتحق بالأزهر، ودرس به علوم الدين واللغة، ثم دخوله دار العلوم التي أكدت دراساته السابقة في الدين واللغة.

ومن صور هذا التأثر دعاء المولى في مرثياته كثيرًا من ذلك قوله في رثاء الشيخ طاحون: " د/ص ٤٠٠"

ألا رحم الرحمن طاحون إنه ⁂ كثير الأيادي عاش للخير هاديا

وكذلك قوله في نفس القصيدة : (د/ص ٤٠٠)

عليه سلامُ الله كم كان ذا تقى ⁂ وكم كان بـــــرًا للحوائج قاضيا؟

وقوله: " د/ص ٣٩٠ "

إلهي آتنا صبرًا جميلاً ⁂ وعوضنا به خير الجزاء

وقوله : "د/ص ٣٩٥"

يا رب ألهمنا وعوضنا به ⁂ صبرًا وسلواناً وحسن ثواب

ومن صور التأثر بالمعاني الإسلامية قوله في الدعوة إلى قيمة الصبر على الملمات: " د/ص ٣٩٩ "

محمدُ، الصبرَ إن الله ذو نعـــم ⁂ ولا تقل إن ألمت كربةٌ آهـا

للصابرين غداة الروع أجرهم ⁂ وللشدائد عند الله عقباها

ومن مظاهر التأثر بالمعاني الإسلامية في مضامين رثائه التواصل مع القصص القرآني من ذلك قوله في كارثة السيل بقنا: "د/ص ٣٩٨"

حنانيكَ رحمنَ السماء فقد كفـا ⁂ هُمُ وكفانا ما بدا من متاعب

فليس لهم من أمرك اليوم عاصم ⁂ سوى رحمةٍ تجلو ظلام الغياهب

وما قومُ نوح هُمْ، فما بال موتهم ⁂ على يد طوفانٍ من الماء ساكبِ

فأقلع عن التسكابِ يا غيثُ، وابلعي ⁂ مياهك يا ذات الثرى والمسارب

فهو يتواصل في هذه الأبيات مع قصة نبي الله نوح عليه السلام في مشهد غرق قومه كما جاء في القرآن الكريم، حيث يدعو الله سبحانه أن ينجي أهل قنا من هذا السيل المدمر، وأن يحفظهم من مصير قوم نوح الذين هلكوا غرقاً بالماء، ثم يستعير بعضًا من الجمل في هذه القصة.

ومن صور تأثر معاني الرثاء لدي شاعرنا بالمعاني الإسلامية إقراره بالقضاء والقدر، وبيان ضعف الإنسان أمامه، من ذلك قوله: (د/ص ٣٩٠)

فيا من قد حزنت لفقد خالٍ ⁂ تجمَّل إنه حكم القضاء

وليس لكائن حي مفرٌ ⁂ لما حكم الإلهُ من الفناء

ويقول أيضاً في رثاء والده: (د/ص ٣٨٦)

لكنه حكم الإله وهل له ⁂ قل لي بربك من يرد ويدفع؟

نزل. الذي سلبَ الجَنَانَ نزولُهُ- ⁂ دارًا علمت نزيلَها لا يرجع

ثم يقول كذلك في نهاية القصيدة: (د/ص ٣٨٧)

لكنها الأقدار هذا دأبها ⁂ تغتال منا من تشاء وتنزع

إنْ تضحك اليوم امرأً وتسره ⁂ فغداً إليه المبكيات ستسرع

وإذا سقته اليوم شهداً، في غدٍ ⁂ يأتيه كأس النائبات المترع

٤ – المبالغات المقبولة: من يستعرض معاني الرثاء في شعر هاشم الرفاعي يجد أنه كان يلجأ إلى المبالغات في بعض القصائد، وبخاصة تلك التي تقوم على التأبين، لكنها على أية حال مبالغات مقبولة لا تصل إلى درجة الإحالة الممقوتة من ذلك قوله في خال صديقه:[١]

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٠ .

وددنا أن يعيش النبلُ دهرًا ⁂ وأن تحيا المكارمُ في ارتقـــاءِ

وكنا نبتغي للجودِ عمـــرًا ⁂ ونرجو للندى طولَ البقـــاءِ

فهو يبالغ في وصف الفقيد، ويستعين بالاستعارات التصريحية التي تفيد المبالغة وهي"النبل ، المكارم ، الجود ، الندى" وقد تكون هذه المبالغات من باب الوصف بالمصدر الذي يؤكد المبالغة أيضًا، بل يزيد فيها.

وقوله في رثاء عمه:(١)

بكت المروءة بعد موتك سيدًا ⁂ وهوى بفقدك للوفاء إمـــام

وطوى الردى علمًا بنبل خصاله ⁂ وفعاله تتفاخر الأيـــام

فالمروءة تبكية سيدأ، والوفاء فقده إمامًا، وطواه الردى علمًا تتفاخر بنبل خصاله وفعاله الأزمان والأيام ...كل ذلك يبين المبالغة في معاني المروءة والوفاء والنبل.

وأخيرًا يقول في رثاء ابنة صديقه محمد عطوة معزيًا إياه:(٢)

يا جارةً في ربوع المجد قد درجت ⁂ فنضَّرَت وشقت بالبشر مغناهـا

يرى ذووها مني الدنيا مجمعة ⁂ في بسمة تتراءى مـن ثناياهـا

وتستحيل كأنغامٍ مرنمـــةٍ ⁂ عند المناغاة في الأسماع نجواها

ويستوي إن أرادوا حلو قبلتها ⁂ إن قبلوا قدمًا أو قبلوا فاهـا

والأيك بعدك قد زالت نضارته ⁂ لله زهـــرته ، ما كان أبهاهـا

فقد قدَّم تأبينًا للطفلة بَيَّن فيه منزلتها عند الأهل قبل الموت، فهم يرون منى الدنيا مجمعة عندهم من خلال بسمة واحدة لها، وكلامها كالأنغام الموقعة،

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٦.

(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٩.

وقُــبْلتها في أي مكان لها لذة كبرى، والأشجار بموتها زالت نضارتها... وهكــذا تتابعت المعاني المبالغ فيها، لكنها جميعاً مقبولة.

وهذا كله لم يمنع من ورود بعض المبالغات الممقوتة في بعض المرثيات مثل قصيدته في تأبين الشهيد البطل أحمد عبد العزيز بمناسبة ذكراه الأولى، فهو يقول في بيان منزلته في عالم الذكريات وبين الراحلين: (١)

أنت خير الخالديــنْ ⁂ في سماء الذكريـــاتْ

أنت فخر الراقديــن ⁂ في خـــــلاء الفلـــواتْ

فهو في نظره خير الشهداء الأحياء عند ربهم ممن يذكرون، وكذلك هــو فخر الراقدين من الراحلين في القبور، لكن هذا من المبالغات التي لا نوافقه عليها لأن هناك من يسبقه في ذلك مثل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وجعفــر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وحنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة وغيرهم ممن شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم فهي مبالغات من النــوع الممقوت غير المقبول.

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص٣٨٨

المبحث الثالث : الألفاظ والأساليب

الأسلوب من أهم عناصر الشكل في الأدب، وهو يعني الصياغة وطريقة التعبير، والقالب الذي تصب فيه الكلمات، وكل أديب له أسلوبه، بل لكل أديب معجمه اللغوي الخاص، وهذا ما جعل بعض النقاد يقول: إن الأسلوب هو الشخص، أي إنه روح الكاتب وعقله.(١)

ولهاشم الرفاعي طريقته الأسلوبية في شعره عامة والمرثيات بصفة خاصة، ومن أبرز سماتها وخصائصها الفنية ما يلي:

١ – الأصالة والوضوح: فالشاعر كان محافظاً كما عرفنا يختار لغته بدقة وعناية من المخزون التراثي الكائن لديه، لكنها المحافظة التي تخلو من الألفاظ الخشنة والتراكيب الصعبة غير المفهومة اللهم إلا القليل مما يند عن المنهج العام له، ومن هنا تحققت لديه هذه السمة، ومما يمثلها قوله في تأبين الأديب الكبير حفني ناصف:(٢)

كراسِيُّ القضاءِ رأت أديبًا ⁂ يَقَرُّ أمامه الخصمانُ عينا
لقد حمل الأمانة فاطمأنت ⁂ على كتفيه ، والعدل اطمأنا
وسار إليه ذو حقٍ ضعيفٍ ⁂ فلم يغمض عن الإنصاف جفنا
وذو جاه يجئ فلا تراه ⁂ يقيم لجاهه في الحق وزنا
ولم يتملق الحكام يوماً ⁂ ولا بالحمد سبَّح أو تغنى
وليس إلى النفاق يجر ساقًا ⁂ لدي أحدٍ ليدرك ما تمنى

(١) انظر د/ شوقي ضيف: في الأدب والنقد ص ١٧ بتصرف .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٣ .

فهو في هذا المنقطع الذي يؤبن فيه الأديب الكبير يعتمد على الأسلوب الأصيل الذي يبرز اتجاهه الأسلوبي الفني، حيث يستمد ألفاظه من مخزون التراث العربي لديه مثل " يقر ، الخصمان ، الأمانة ، العدل ، الإنصاف ، يقيم ، يتملق ، سبح ، النفاق ، الساق .. " وهي ألفاظ عربية أصيلة وقريبة.

ومن الأساليب " يقر الخصمان ، حمل الأمانة ، يغمض الجفن ، يقيم الوزن ، يتملق الحكام ، يجر ساقًا .. "

هكذا كانت لغته أصيلة واضحة وسهلة لا تحتاج إلى جهد أو بحث في تفسير معناها.

ويمثل الأصالة والوضوح في أسلوبه أيضًا قوله في رثاء النفس عن نافذة الزنزانة في سجنه ومتابعته للناس من خلالها ما يلي:(١)

وعلى الجدار الصلب نافذة بها ⁂ معنى الحياة غليظة القضبان

قد طالما شارفتها متأملا ⁂ في الثائرين على الأسى اليقظان

فأرى وجومًا كالضباب مُصَوِّرًا ⁂ ما في قلوب الناس من غليان

نفس الشعور لدي الجميع وإن همُ ⁂ كتموا، وكان الموت في إعلاني

فنحن نرى ذكره للنافذة، وبيان حالة الناس الثائرين وشعورهم من خلالها، وقد جاء ذلك بأسلوب عربي رفيع، يجمع بين اللغة العربية الأصيلة وبين الوضوح، ويعرب عن واقع الشاعر وغيره من أبناء بلده في تلك الأيام، وهو ما يفضح الظلم وكبت الحريات آنذاك، وليس في الأبيات ما يصعب فهمه من الألفاظ أو الأساليب اللهم إلا بعض الكلمات التي تغيب عن المتلقي العام مثل الجدار ، شارفتها، الأسى ، الوجوم ، الضباب.

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ١٧٦ .

ومما يؤكد على هذا أيضا قوله في تعزية صديقه في ابنته المتوفاة:(٢)

أنشودة في فؤاد الدهر غناهـــا ⁂ وزهرة عبقت بالروض رياهـــا
راشت لها في نضير من طفولتها ⁂ يد المنية سهمًا في حناياهـــا
ما راعنا وهي فوق الغصن ناضرة ⁂ إلا ذبول المنايا قد تغشاهـــا
يا جارة في ربوع المجد قد درجت ⁂ فنضرت وشقت بالبشر مغناها

ففي أسلوب هذا التأبين أصالة ووضوح، حيث قام الشاعر ببيـــان بعـــض الصفات الخاصة بهذه الطفلة المنكوبة، وكيف اختطفتها يد الموت، وقضت علـــى طفولتها البريئة الناضرة، وقد كان ذلك بأسلوب عربي أصيل، لكنه قريب في نفس الوقت من المتلقين، فليس فيه ما يصعب فهمه من الألفاظ سوى كلمات قليلة هي: ريَّـــــــــاها، راشت، نضير، تغشاها، مغناها، شقت.

٢ – الدقة والتناسب: ومعنى ذلك أن الرفاعي كان يخصص لكل نوع مـــن الرثاء ما يناسبه من الألفاظ والأساليب الخاصة به، ففي النـــدب كـــان الشـــاعر يحرص على اللغة التي تعبر عن حزنه وألمه وتوجعه، وفي التأبين كان يأتي بلغة فيها المديح والثناء على الفقيد قبل موته، وفي العزاء كانت لغة الاتعاظ والحـــث على التأسي والاعتبار بالماضين وضرب الأمثال.

ومما يبين ذلك قوله في ندب زميله أبي الفتوح :(١)

في كل يوم بالفؤاد مـــــرارة ⁂ لفراق من يمضي من الأحباب
وَيفتّتُ الأكـــبادَ أنَّ فراقـــهم ⁂ ورحيلَـــهم عنَّا لغـير إيـــاب
فالنفس تجرع بعدهم كأس الأسى ⁂ مـرًا مذاقـــته كطعم الصاب

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٩ .
(٢) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٤ .

والقلب يبكيهم دمًا ، والعين لا ⁂ تنفك أدمعها كفيض سحـــاب

فالأبيات كما نرى تحتوى على الألفاظ والأساليب التي تعبر الحزن والحسرة والألم التي تكتنف الشاعر من جراء هذه المصيبة التي أحزنته على رحيل صديقه المقرب مثل: الفؤاد ، مرارة ، الفراق ، الأحباب ، الأكباد ، المر ، الرحيل ، النفس ، كأس الأسى ، العلقم وغيرها ، وكذلك الأساليب مثل: بالفؤاد مرارة ، يفت في الأكباد ، تجرع بعدهم ، القلب يبكيهم ... إلخ

وهذا يختلف عن التأبين، ففيه تأتي ألفاظ هي أقرب للثناء منها إلى الرثاء، ومما يمثل ذلك قوله في تأبين صلاح ذهني ما يلي:(١)

رُبَّ نقدٍ قد تَبَدَّى ⁂ منه بالحق الصراحْ
يعلن الرأي قويًا ⁂ ليس يخشى لوم لاحْ
وأقاصيص تراءتْ ⁂ مشرقاتٍ كالصباحْ
صوغُها صوغُ جمانٍ ⁂ نفحُها نفحُ الأقاحْ
فاتناتٌ كالعذارى ⁂ بين أنغامٍ وراحْ
ساقها فناً رفيعاً ⁂ في غلالاتِ المِلاحْ

فهنا تبتدي الأساليب والألفاظ التي تثنى على هذا الكاتب والناقد المصري المعروف، وتبين منهجه في النقد الأدبي والصياغة القصصية، وهذا يتناسب مع نوع الرثاء هنا الذي يقوم على التأبين الذي يعدد خصال الميت ويبين فضائله قبل حلول الموت.

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٣ .

ومما يبين العزاء والحث على القيم وبيان الجزاء الكبير في الأساليب الشعرية قوله في عزاء صديقه:(١)

محمدُ! الصَّبْرَ إن الله ذو نعم ⁂ ولا تقل إن ألمت كربةٌ آهـا

للصابرين غداة الروع أجرهم ⁂ وللشدائد عند الله عقباها

يا نضر الله قبراً ضمَّ أعظمها ⁂ يا عطر الله بين الترب مثواها

فالأبيات قامت على الدعوة إلى الصبر على الشدائد وعدم اليأس أو الحزن وبيان فضيلة ذلك عند الله، ثم الدعاء للفقيدة بنضرة القبر وطيب المثوى، وقد أدى الشاعر هذه المعاني بألفاظ وأساليب تتناسب معها مثل الصبر ، لا تقل ، الصابرين ، الشدائد ، نضر ، قبرًا ، مثواها من الألفاظ، ومحمد الصبرَ ، لا تقل آها ، للصابرين أجرهم ، وللشدائد عقباها من الأساليب، وهي جميعا تناسب العزاء.

٣ – التواصل النصي: ومعناه التأثر بالنصوص السابقة، والاستمداد من معانيها أو ألفاظها أو منهما على السواء في النص الجديد، وهذا ما يقابل التناص في الفكر الغربي الحديث والذي يعني أن أي نص أدبي جديد إنما هو مجموعة متداخلة من النصوص المختلفة التي قرأها صاحبه؛ تجمعت وتلاصقت مكونة ذلك النص.(٢)

وحينما ننظر في مرثيات هاشم الرفاعي نجد أنها تأثرت كثيرًا بالنصوص السابقة، وتواصلت معها، فقد استمد الشاعر منها بوعي أو بغير وعي، وضمن هذه القصائد ما يبرهن على ذلك، ومن أبرز النصوص التي اعتمد عليها هاشم

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٩ ،

(٢) انظر د/إبراهيم عوض: مناهج النقد العربي الحديث ص ٢٥ ط / المنار للطباعة عام ٢٠٠٣م.

النصوص الدينية المتمثلة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فقد اقتبس منهما كثيرًا في مرثياته، وأبرز ذلك في لغتها وأسلوبها، والاقتباس يعني أن يضمن الكلام شيئًا من القرآن الكريم أو الحديث لا على أنه منه.(١)

ومن صور التواصل النصي مع القرآن الكريم قوله في رثاء والده مقسمًا على تبرئة نفسه من تهمة عدم الحزن عليه كما رماه بها الآخرون:(د/ص٣٨٦)

تالله قد ظلموه إذ قالوا له ⁂ في يوم موتك والأقاربُ جُمَّعُ

مات الذي يرعى صباكَ ولا نرى ⁂ عينيك تدمعُ، أو نراك تفجعُ

فقد استمد الشاعر القسم " تالله " من الأسلوب القرآني الذي ورد فيه كثيرًا من ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴾ سورة يوسف آية / ٩٥

وكذلك قوله في نفس القصيدة: (د/ص ٣٨٧)

لكنها الأقدار هذا دأبها ⁂ تغتال منا من تشاء وتنزع

فيه اقتباس من قوله تعالى:﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة آل عمران من الآية رقم/ ٢٦

وقوله في رثاء الشهيد أحمد عبد العزيز:(د/ص ٣٨٨)

لم تزريا ليث قبرًا ⁂ بل بعَدْنٍ تستريحْ

مستوحىً من قوله تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ سورة التكاثر آية/ ١، ٢

وكذلك دعاؤه في ختام قصيدة العزاء التي وجهها لابن عمه في وفاة خاله: (د/ص ٣٩٠)

---

(١) بغية الإيضاح أ/ عبد المتعال الصعيدي جـ ٤ ص ١١٤ ط/ مكتبة الآداب" القاهرة" د.ت .

إلهي آتنا صبرًا جميلاً ⁂ وعوضنا به خيرَ الجزاءِ

مقتبس من قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ سورة المعارج آية رقم/ ٥

وقد أكثر من الاقتباسات في مطلع قصيدة "كارثة في قنا" ومما جاء فيه: (د/ص ٣٩٧)

وهل تلك لليوم العظيم دلائل ⁂ سيتبعها فيه انتشار الكواكبِ

ألمَّ بها للرعب والموت نازلٌ ⁂ على قدرٍ مما قضى الله غالبِ

وطاف عليها طائفٌ لا ترده ⁂ قناةٌ ، ولا تخشى قراع الكتائبِ

فهو في هذه الأبيات اقتبس عددًا من الآيات التي تتناسب في معناها مع حديثه عن هذه الكارثة الإنسانية الكبرى التي حلت بأهل قنا، ومن هذه الاقتباسات أنه اعتمد في البيت الأول على قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ الانفطار آية/ ٢

وفي البيت الثاني اقتباس من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ سورة طه/ ٤٠

وقوله أيضًا ﴿ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ سورة يوسف/ ٢١

وفي البيت الأخير اتكأ على قوله تعالى: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ سورة القلم آية/ ١٩

وهكذا كان للقرآن الكريم أثره الكبير في مرثيات هاشم الرفاعي، ولا عجب في ذلك فقد حفظه منذ الصغر، وظل يقرأه، ويراجعه، ويدرس نصوصه أثناء وجوده بالمعهد الديني بالزقازيق الذي دام لما يقرب من عشر سنوات.

أما عن تواصل المرثيات مع الحديث النبوي الشريف فهو أقل مما حدث مع القرآن، من ذلك قوله في رثاء الأزهر: (د/ص ١٧٥) .

من كان بهجةَ كلِّ طرفٍ ناظر ⁂ عادت به الأطماعُ أشعثَ أغبرا

فلا يخفى علينا أن ختام البيت مقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور" رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرين مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره " رواه مسلم عن أبي هريرة.

وقوله في رثاء نفسه في الرسالة المشهورة: (د/ص ١٦٦)

قد عشت أومن بالإله ولم أذق ⁂ إلا أخيرًا لذة الإيمانِ

فالبيت متأثر بالحديث النبوي المشهور: " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً " رواه مسلم عن العباس بن عبد المطلب.

كذلك تواصلت مرثيات هاشم مع النصوص الشعرية العربية القديمة والمعاصرة لدي الرواد، فامتاحت منها، ونقلت مما ورد في نماذجها الرفيعة، وهذا ما يسمى بالتضمين عند علماء البلاغة والذي يعني " أن يضمن الشعر شيئًا من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء."[١]

ومما يؤكد على ذلك أن الشاعر تجاوب في كثير من مرثياته مع أهم الشعراء القدماء من أمثال أبي ذؤيب الهذلي وعنترة وامرئ القيس والمتنبي وصفي الدين الحلي وأبي البقاء الرندي، كما أعجب ببعض الشعراء المعاصرين الرواد ومن أبرزهم شوقي وحافظ، ومن هنا كثر التواصل أو التضمين في مرثياته.

ومن تواصله مع الشعر القديم قوله في رثاء والده: (د/ص٣٨٦)

أمن المصاب وعُظْمه تتوجع ⁂ والعين منك سيولها لا تقطع؟

(١) بغية الإيضاح أ/ عبد المتعال الصعيدي جـ ٤ ص ١١٩

هذه الدموع أراك تذرفها سدى ⁂ كفكف دموعك إنـــها لا تُرْجِـع

إنه يبين عظم الفاجعة التي مني بها في فقد والده، وقد وجد في عينية أبي ذؤيب المشهورة ما يساعده على ذلك، فمضى على منوالها في الحـوار، وأخـذ بعض كلماتها ووزنها وقافيتها مما يعني أنها عارضها، وتواصل معها، ومما يؤكد ذلك قول أبي ذؤيب في المطلع:(١)

أمن المنون وريبها تتوجـــع ⁂ والدهر ليس بمعتب من يجـــزع؟

قالت أميمة ما لجسمك شاحبًا ⁂ منـــذ ابتذلت ، ومثل مالك ينفع

أم ما لجسمك لا يلائم مضجعًـا ⁂ إلا أقـــضَّ عليك ذاك المضجـــع

فأجبتـها أن ما لجسمي أنـه ⁂ أودى بنيَّ من البـــلاد فودِّعـوا

ومن التواصل مع الشعر القديم أيضًا قوله في هذه القصـيدة أيضًـا عـن اختلاف الأقدار في الدنيا وعدم ثباتها على حال: (د/ص ٣٨٧)

إنْ تضحك اليوم امرأً وتسره ⁂ فغداً إليه المبكيات ستسـرع

وإذا سقته اليوم شهدًا ، في غدٍ ⁂ يأتيه كأس النائبات المتـرع

ففضلاً عن تواصله هنا مع المعاني الإسلامية، نرى أنه تواصل مع شـعر أبي البقاء الرندي في مرثيته المشهورة لبلاد الأندلس، ففي مطلعها يـذكر أبـو البقاء اختلاف الأقدار وعدم ثباتها في الدنيا مثل الذي تحقق عند هاشم كما رأينـا آنفًا ، يقول أبو البقاء (٢) :

هي الأمور كما شاهدتها دول ⁂ من سره زمن ساءتـــه أزمـانُ

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ت أ /علي محمـد البجـاوي ص ٥٣٤، ٥٣٥ ط/ نهضة مصر "القاهرة" د.ت.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري ت د/ إحسان عباس جـ ٤ ص ٤٨٧ ط / دار صادر " بيروت " د.ت .

وهذه الدار لا تبقي على أحد ⁂ ولا يدوم على حال لها شـــانُ

ومن التناص مع القديم أيضًا قوله في عزاء نفسه وبيان حالتها السـيئة لدى بعض الإخفاقات التي توافقت مع بعض الأعياد ما يلي:(د/ص ٣٨٥)

عيد بأيةِ حال عدت يا عيـد ⁂ بما مضى أم لأمرٍ فيـك تجديـد

أتيت للناس لا لي إنني تعسٌ ⁂ قست عليه صروف الدهر يا عيد

ففي هذين البيتين يعرب الشاعر عن حالته التعيسة التي توافقت مع بعض الأعياد، وقد وجد في دالية المتنبي المشهورة وحالته السـيئة عنـد صـياغتها، ومرور مناسبة العيد أيضًا عليه – وجد في ذلك كله تشابهاً مما جعلـه يتواصـل معها في الأسلوب، وينقل منها، ويحذو حذوها، وفيما يلي أبيات المتنبـي التـي صدر بها داليته:(١)

عيدٌ بأيةِ حالٍ عـدتَ يا عيـدُ ⁂ بما مضى أم لأمرٍ فيك تجـديدُ

أما الأحبةُ فالبيداءُ دونهـم ⁂ فليـتَ دونك بيـدًا دونـها بيـدُ

لولا العلى لم تَجُبْ بي ما أجوب بها ⁂ وَجْناءُ حَـرْفٌ ولا جـرداءُ قَيْـدُودُ

ومن تواصل المرثيات لدى هاشم مع الشعر في العصر الحديث قوله فـي رثاء الأزهر: (د/ص ١٧٥)

قف في ربوع المجد وابكِ الأزهر ⁂ واندبه روضًا للمكارم أقفـرا

فهو هنا يستدعي قصيدة أمير الشعراء المشهورة في الأزهر وأعلامه، ثم يأخذ منها بعض الألفاظ، ويمضي على منوالها في الوزن والقافية، يؤكد على ذلك قول شوقي:(٢)

---

(١) ديوان شيخ شعراء العربية ص ١٣٥ ت د/ عبد المنعم خفاجي وآخَرَيْن ط/ مكتبة مصـر "القاهرة " عام ١٩٩٤م.

(٢) الشوقيات جـ ١ ص ١٤١ ط / مكتبة مصر " القاهرة " د.ت .

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا ⁂ وانـثر على سمع الزمان الجوهرا

واجعل مكان الدر – إن فصلته ⁂ في مدحه – خرزَ السماءِ النيرا

وكذلك قول هاشم في رثاء الفتاة في قصيدته الزهرة الذابلة: (د/ص ٣٩٩)

سُقياً لعهدٍ تولى كنتِ فتنـتهُ ⁂ حيناً ، وواهًا لأيامٍ مضت واهـا

فذلك متواصل مع قول أمير الشعراء في النونية وما به من الدعاء أيضـاً في قوله:(١)

سُقياً لعهدٍ كأكنافِ الربى رِفَةً ⁂ أنَّى ذهبنا ، وأعطافِ الصَّبَا لينا

٤ – التوشية ببعض الحكم: من يستعرض مرثيات هاشم الرفاعي يجـده يوشيها ببعض الحكم التي استوحاها من قراءاته العميقـة وحفظـه لكثيـر مـن النصوص الرفيعة مثل سور القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وقصـائد الشعر العربي للأعلام في القديم والحديث، كل ذلك وغيره أمده بزاد موفور مـن اللغة والمعاني والأفكار، فأعمل فيها عقله وفكره وقدرته التعبيرية الفائقة ومن ثم أخرج عددًا لا بأس به من الحكم، وضمنها مرثياته، وقد ساعده على ذلك طبيعـة فن الرثاء التي تؤثر الحكم والمواعظ حتى يسـري بـه الشـاعر عـن الـنفس المهمومة، ويبين كثيرًا من حقائق الحياة التي يعزى بها الإنسان؛ وذلك بأسـلوب صقيل موجز.

ومن الحكم الواردة في رثاء والده قوله: (د/ص ٣٨٦)

حسبوا العيون تنم عن حزن الفتى ⁂ والحزن أقسى في القلوب وأوجع

وقوله في نهاية هذه القصيدة: (د/ص ٣٨٧)

وعزاؤنا أن سوف يجمعنا الفـنا ⁂ بك ، فالفـناءُ مُفـرِّقٌ ومُجَمِّعُ

(١) الشوقيات جـ ٢ ص ١٠٧ .

ومنها في ختام قصيدة الشهيد أحمد عمر: (د/ص ٣٩١)

فانقسام الرأي داء قاتـــل ⁂ إن أصاب القوم فالويل الشديـدْ

واعلموا أن المعالي سُلَّـم ⁂ واتحاد العزم مفتاح الصعـــودْ

ومنها كذلك في رثاء صديقه أبي الفتوح: (د/ص ٣٩٤)

تلك المنية لا تزال على الورى ⁂ تسطو بظفرٍ لا يُفَلُّ ونـابِ

ومن الحكم في رثاء عمه ما جاء في قوله: (د/ص ٣٩٦)

بجوار ربك نم فقد أسهدتـنـا ⁂ وأخو الأسى والحزن كيف ينام؟

ومما ورد من الحكم في المرثيات قوله في تأبين الرافعي: (د/ص٤٠١)

الحقُّ كالشمس لا تُخْفِي أشعَّتَها ⁂ إلا لتغمرَ عند الصبحِ واديـنـا

وإنْ أمَالَ موازينَ الرجالِ هـوىً ⁂ عن الصواب، فقد ساءت موازينا

ومن أبرز الحكم عند هاشم التي رصع بها مرثياته تلك التـي وردت فـي رسالته في ليلة التنفيذ، ومنها قوله: (د/ص ١٦٧،١٦٨)

ومن العواصف ما يكون هبوبُها ⁂ بعد الهـدوءِ وراحـة الرُّبَّـانِ

إنَّ احتدام النار في جوف الثرى ⁂ أمـرٌ يثـير حفيظـة الـبركانِ

وتتابع القطرات ينزل بعـده ⁂ سيلٌ يليه تدفـقُ الطـوفـانِ

فيموجُ...يقتلع الطغاةَ مزمجـراً ⁂ أقوى من الجبروت والسلطان

فهو في هذه الحكم يبين أن الثورات الشعبية الكبرى تحدث فجأة لكن لهـا شواهد ومقدمات كثيرة تؤدي إليها، وحينما تقع تكون كالريح العاتيـة والبركـان المشتعل والطوفان المتدفق الذي يموج فيقتلع ما أمامه، ويزيل أقـوى الحـواجز والسدود ، ويمحو الظلم والجبروت..

وهكذا رأينا انتشار الحكم في مرثيات هاشم، وهي جميعاً تعبر عن رؤيـة الشاعر في بعض المواقف الحياتية، وقد وردت في وسط القصـائد فـي بعـض الأحيان، ووردت في ختام القصائد في أحيان أخرى.

المبحث الرابع : الصور والأخيلة

الصورة لها تعريفات كثيرة لدي النقاد، منها قولهم " هي نقل تجربة حسية أو حالة عاطفية من الشاعر إلى المتلقي في شكل فني تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة " (١)

والخيال جزء من مكونات هذه الصورة ، ويتمثل في الأشكال المجازية المتعددة من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها، أما الأجزاء الأخرى فهي كثيرة منها الألفاظ الموحية والتعبيرات المنتقاة والإيقاع الموسيقي والظلال التي يشعها التعبير وطريقة تناول الموضوع وسواها.(٢)

والشاعر الحق هو من يرى الأشياء برؤية فنية خاصة به هو، ويدرك ما فيها من أسباب الروعة أو الإخفاق، ثم يعرضها علينا في صورة مجسمة لندرك ما فيها وكأنها حقيقة ملموسة، وعلى قدر براعة الشاعر في هذا التجسيم يمكننا أن نقف على أسرار هذه الأشياء التي صورها؛ فيتملكنا الإعجاب والرضا.(٣)

والملاحظ على مرثيات هاشم الرفاعي أنها كانت تعتمد على الصور والأخيلة كثيرًا في إطارها العام، فما تكاد تقف على واحدة منها إلا وقد حلى جيدها بحلية البيان من تشبيهات واستعارت وكنايات التي تصور ما يمور في

---

(١) د/ محمد علي هدية: الصورة في شعر الديوانيين ص ٤٧ ط/ المطبعة الفنية رقم ١ عام ١٩٨٤ م .

(٢) انظر د/ عبد المنعم خفاجي: مدارس النقد الأدبي الحديث ص ٥٦ وما بعدها ط/ الدار المصرية اللبنانية رقم ١ عالم ١٩٩٥ م .

(٣) انظر أ/ أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي ص ٢١١ ط/ النهضة المصرية رقم ١٠ عام ١٩٩٩م .

نفسه من مشاعر الحزن والألم والفراق، وتجسد ما يدور في خلده من أفكار وخواطر إنسانية.

وقد التقط هذه الصور والأخيلة من شعوره المتدفق نحو من يرثيهم، ثم من مكانتهم الرفيعة وشمائلهم المتعددة، على أنه لجأ في كثير منها إلى التراث الشعري العربي، فاستمد من مخزونة البياني ما أعانه على التعبير والتصوير الفني، وليس في ذلك عيب مادام قد أتى في مكانه المناسب، وخضع لأداة الشاعر الفنية التي تتدخل بالحذف والإضافة والتغيير والتبديل لتبرز شخصيته.

١ – وفي قصائد الندب التي خصصها لرثاء أهله وأقاربه وأصدقائه ومعارفه ونفسه ومؤسسات بلده – وردت كثير من الصور التي تعبر عن ذاته الحزينة ومشاعره الفياضة بالحزن والألم على رحيلهم، من ذلك قوله في والده.[١]

ذهب الإمام فما رأيت لرده ⁂ سبلاً ، فهل تجدي الدموع وتنفعُ؟
يا ليتها تجدي إذاً لرأيتها ⁂ بحراً عجاجاً ، من عيونٍ ينبعُ
لكنه حكم الإله وهل له ⁂ . قل لي بربك. من يرد ويدفعُ؟

فقد عبرت هذه الصورة عن الفاجعة الكبرى التي أصابت الشاعر، وهي فقد والده الذي ذهب، وليس من سبيل إلى رجوعه مرة ثانية، ولو كانت الدموع تنفع إذًا لبكاه بغزارة، لكنه حكم الله وقضاؤه، ولا راد لذلك.

وقد استعان الشاعر ببعض العناصر الفنية التي أسهمت في رقي الصورة مثل الكناية في " الإمام " التي يقصد بها والده، وكذلك التشبيه لغزارة الدمع عند أفادته بالبحر العجاج أي الملئ بالمياه والمستمر في جريانه، والاهتمام بالكلمات الموحية مثل " الإمام " التي توحي بالعظمة والريادة والمنزلة الرفيعة، ثم كلمة " عجاج " التي توحي بكثرة الحزن والدموع والأسى، وكذلك أسلوب الاستفهام

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٨٦

الإنشائي في البيت الأول" هل تجدي الدموع وتنفع؟ " الذي يفيد النفي، وأيضًا الأسلوب نفسه في البيت الثالث "هل للقضاء من يرد ويدفع؟" فهو يفيد النفي كذلك، وأخيرًا الاعتماد على التكرار المعنوي بين " يجدي وينفع " و " يرد ويدفع " فهو هنا للتأكيد.

ومن صوره الشعرية في الندب أيضًا قوله في رثاء صديقه أبي الفتوح:(١)

لم ندرِ أن الأرض قادرةٌ على ⁂ إخفاء ضوءٍ ثاقبٍ لشهابِ
حتى رماك بنافذ من سهمه ⁂ قدرٌ كليلٌ ، حالكُ الجلبابِ
تلك المنية لا تزال على الورى ⁂ تسطو بظفرٍ لا يفل ونابِ
في كل يوم بالفؤاد مرارةٌ ⁂ لفراق من يمضي من الأحبابِ
ويفتُّت الأكباد أن فراقَهم ⁂ ورحيلَهم عنَّا لغير إيابِ
فالنفس تجرع بعدهم كأس الأسى ⁂ مراً مَذَاقته كطعم الصابِ
والقلب يبكيهم دمًا ، والعين لا ⁂ تنفك أدمعها كفيض سحابِ

ففي هذه الصورة الكلية قدم هاشم للمتلقي ما يفيد عظم الفاجعة التي مني بها من جراء رحيل هذا الصديق العزيز، ثم بين حتمية الأقدار وتحقق الموت، وأخيرًا يبرز أثرها في نفسه، فقد امتلأ قلبه مرارة، وتقطعت كبده، وتجرعت نفسه كأس الأسى، وبكت عينه بغزارة .. وقد استعان في أثناء ذلك بكثير من صور الخيال المجازي التي أسهمت في الإيجاز والتجسيم والمبالغة وذلك مثل الاستعارة في " قدر ، المنية ، القلب " وكذلك التشبيه في " كطعم الصاب ، كفيض سحاب " وكذلك الكناية في " حالك الجلباب " التي يكني بها عن شدة السواد وغير ذلك.

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٤ .

ولا يخفى على المتلقي شدة تأثر الشاعر في الأبيات بالتراث في هذه الصورة، من ذلك قوله:

تلك المنية لا تزال على الورى ⁂ تسطو بظفر لا يُفَّل وناب

فهو متأثر هنا بقول أبي ذؤيب الهذلي فيما يلي:(١)

وإذا المنية أنشبت أظفارها ⁂ ألفيت كل تميمة لا تنفع

وإن كان قد تدخل بالتحوير والتبديل في الأسلوب والكلمات، لكن الصورة واحدة تقريباً.

ومن التأثر بالتراث في هذه الصورة أيضًا قوله :

فالنفس تجرع بعدهم كأس الأسى ⁂ مرًا مذاقته كطعم الصاب

حيث تأثر بمعلقة الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد في البيت الذي يقول:(٢)

وإذا ظُلِمتُ فانَّ ظلمِيَ باسلٌ ⁂ مُرٌّ مذاقته كطعم العلقمِ

فالتشابه بين الصورتين واضح في البيتين، وإن اختلف السياق، وتغيرت بعض الكلمات.

ومن الصور البيانية في الندب أيضًا ما ورد في رثاء عمه في قصيدة "فقيد أنشاص" فيما يلي: (د/ص ٣٩٦)

رحنا نشيع منك بحرًا للتقى ⁂ في ضفتيه الجود والإكرام

وقوله :

حَرُّ الأسى بين الضلوع كأنه ⁂ في القلب من هول المصاب ضرامُ

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ت / علي محمد البجاوي ص ٥٣٦ .

(٢) ديوان عنترة تقديم أ / كرم البستاني ص ٢٣ ط / دار صادر " بيروت " د.ت .

وقوله :

بكت المروءةُ بعد موتك سيـــــداً ⁂ وهوى بفقدك للوفاء إمــام

وطوى الردى علماً بنبل خصالـه ⁂ وفعاله ، تتفاخر الأعــلام

فكلها صور بيانية جزئية وردت في القصيدة لكي تعبر عــن جــزء مــن التجربة العامة فيها، وتبين منزلة الفقيد، وأثر موته علــى الشــاعر ونفســيته، وتتحدد تلك الصور في الاستعارة والكناية في البيت الأول، ثم التشبيه في البيــت الثاني، وأخيرًا الاستعارات في البيتين الأخيرين.

٢ – وكذلك كانت الصورة والخيال في قصائد التــأبين التــي خصصــها الشاعر لبعض الرواد والقادة، فقد استعان بها كثيرًا في الــنص للإعــراب عــن عواطفه ومشاعره الحزينة من جانب والمعجبة والفخورة بهم من جانب آخر، وقد حدث ذلك مع كل من أَبَّنَهم مثل صادق الرافعي وحفني ناصــف وصــلاح ذهنــي والبطل أحمد عبد العزيز.

من ذلك قوله في الأديب والمفكر الكبير حفني ناصف:(د/ص ٤٠٣)

على سمع الخلود تركت لحنا ⁂ به التاريخ في الآفاق غــنــى

صحائفَ مشرقاتٍ من بيـانٍ ⁂ تـألقُ في الزمان فليس يفنــى

عرفتك في ذرا العلياء سِفْـراً ⁂ سمت آياته لفظــاً ومعنــى

فهذه الأبيات تقدم لنا صورة عامةً عن شعر حفني ناصف ومنزلته الأدبية الكبيرة وإعجاب الشاعر به، ومع أن الموضوع هنا يركز على بعض الحقائق فقد استطاع الشاعر أن يحرك عاطفة المتلقي ووجدانه ؛ وذلك بما ذكر مــن صــور البيان المنثورة في الأبيات مثلما جاء في قوله: تركت على سمع الخلــود لحنًــا، التاريخ غنى، عرفتك سِفْراً وغيرها، وقد ورد ذلك في أثناء تــأبين الفقيــد فــي

الذكرى السنوية الأربعين على رحيله مما يشعر بالحزن من جانب والإعجاب من جانب آخر.

وكذلك قوله في صلاح ذهني: (د/ص ٣٩٣)

شعلة للفن كانت ⁂ خير رمز للنجاحْ

أطفأتها حين هبت ⁂ للردى تلك الرياحْ

فالبيتان يقدمان صورة موجزة عن هذا الكاتب ، فهو شعلة للفن في حياته، وقد أطفأتها رياح الردى، وقضت عليها إلى الأبد، ولا يخفى علينا اعتمادها على الصورة البيانية مثل التشبيه البليغ في " شعلة " والمجاز في " رياح الردى " والصورة في النهاية تنم عن إعجاب الشاعر وحزنه في الوقت نفسه، وهي مبللة بعواطفه ومشاعره من خلال ذلك التصوير البياني.

٣ – وكذلك كانت مرثياته في جانب العزاء تعتمد على الصورة الفنية والخيال بأنواعه المختلفة، وذلك للتعبير عن مشاعره وأحزانه ودفع المنكوبين لأخذ العظة والعبرة، وحثهم على التحمل والصبر والرضا بالقضاء.

ومما يمثل ذلك قوله في عزاء صديقه عند وفاة ابنته: (د/ص ٣٩٩)

يا وجنةَ الوردِ قد عادت محاسنها ⁂ كصفرة الورس تمشى في محياها

أبوكِ خلفتهِ أسوانَ ما تركت ⁂ له لياليك إلا حرَّ ذكراها

لم يُبْقِ فقدُك يا سوزان منه سوى ⁂ نفسٍ بها ما بها من مرّ بلواها

محمد! الصبرَ ، إن الله ذو نعم ⁂ ولا تقل إن ألمت كربة آها

للصابرين غداة الروع أجرهم ⁂ وللشدائد عند الله عقباها

فالأبيات تقدم صورة عن موت الطفلة وأثر ذلك على والدها، ثم تختتم بدعوة هذا الوالد إلى الصبر وعدم اليأس لأن نعم الله الأخرى كثيرة، وجزاء

الصابرين عند الله أعظم وأوفى، وقد تأثر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ سورة الزمر/١٠

وقد وردت في أثناء ذلك كله بعض صور البيان مثل التشبيه في البيت الأول " كصفرة الورس " والورس نبت أصفر يزرع باليمن(١)، وقد شبه الشاعر وَجْنَةَ الطفلة بلونه بعد الموت لإظهار أثره للمتلقين، كما اعتمد على بعض الألفاظ الموحية مثل " أسوان " التي توحي بكثرة الحزن وشموله عند والدها، وكلمة " آها " التي تدل على شدة التوجع والتألم، وقد أتت هنا في سياق النفي؛ لأن الشاعر ينهي صديقه عن شدة التألم التي تؤدي إلى اليأس والقنوط من رحمة الله، كما أنه رصع الصورة ببعض الاقتباسات القرآنية كما عرفنا ذلك آنفاً، واستمد من ألفاظ القرآن فيها مثل " ذكراها، لا تقل، أجرهم، عقباها.."

وهكذا اعتمد هاشم الرفاعي على الصورة والخيال في كل مرثياته، ووظف ذلك توظيفاً فنيًا، ومن ثم عبرت عن مشاعره وأحزانه، وأدت دورها بنجاح في شتى المناسبات التي أنشئت من أجلها.

أما عن أهم خصائصها فيمكن إجمالها من خلال ما مضى من النماذج في القرب والوضوح والحسية والاعتماد على الموروث في كثير منها؛ ثم شمولها لكل أنواع الرثاء من الندب والتأبين والعزاء.

(١) المصباح المنير مادة " ورس " .

المبحث الخامس : الوزن والموسيقى

وهذا العنصر من أهم مميزات الشعر، بل هو أخص خصائصه؛ ذلك أنه هو" العماد الذي تستند عليه، وتتغذى به كل العناصر الفنية المشكلة للتجربة الشعرية، وبدون هذا العنصر يتحول البناء الشعري إلى أنقاض نثرية خالية من الروح والعاطفة"(١)

ولهذا العنصر قيمة كبرى في أدبية النص الشعري؛ ذلك أنه يتمثل في الإيقاع المنتظم الذي يضفي على الكلام الرونق والبهاء والجمال مما يثير انتباه المتلقين، وينسق أحاسيسهم ومشاعرهم، ويشدهم إلى متابعته، فتصل معانيه إلى قلوبهم بمجرد سماعه.

والموسيقى الشعرية كما هو معلوم تنقسم إلى قسمين: خارجية وتتمثل في الوزن والقافية اللذين قام الشاعر باختيارهما في قصيدته. ثم داخلية تنبع من الألفاظ الموحية وصور البديع والتكرار والتصريع وغيرها مما يزيد في جمالية النص الشعري وموسيقاه.(٢)

وقد ارتكز هاشم الرفاعي على عنصر الوزن والموسيقى في كل مرثياته، وفيما يلي جدول توضيحي يبين طبيعة هذا العنصر وأهم الأوزان والقوافي فيها:

---

(١) د/ يسري العزب: القصيدة الرومانسية في مصر ص ١٤٠ ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٦م.

(٢) انظر د/ طه أبو كريشة: في ميزان النقد الأدبي ص ٣٤، ٣٥ و د/ محمد زامل: رثاء الذات في الخطاب الشعري الجاهلي ص ٤٩ وما بعدها.

م	القصيدة	الوزن	القافية	عدد الأبيات	ملاحظات
١	أحزان	البسيط	دالية	٨	
٢	عزيز يفارق	الكامل	عينية	٢١	
٣	الشهيد أحمد عبد العزيز	مجزوء الرمل	متنوعة	١٩	ساكنة الروى
٤	عزاء	الوافر	همزية	٨	
٥	الشهيد أحمد عمر	الرمل	دالية	١٦	ساكنة الروى
٦	مأساة يتيم	الكامل	رائية	٣	
٧	صلاح ذهني	مجزوء الرمل	حائية	١٥	ساكنة الروى
٨	دمعة على زميل راحل	الكامل	بائية	٢٢	
٩	فقيد أنشاص	الكامل	ميمية	١٧	
١٠	كارثة في قنا	الطويل	بائية	٢٥	
١١	الزهرة الذابلة	البسيط	هائية	١٥	
١٢	رثاء عالم	الطويل	يائية	٢٠	
١٣	في ذكرى الرافعي	البسيط	نونية	٣٤	
١٤	حفني ناصف	الوافر	نونية	٢٥	
١٥	رسالة في ليلة التنفيذ	الكامل	نونية	٧١	
١٦	الأزهر	الكامل	رائية	٤١	
١٧	زفرة	المتقارب	نونية	٢٩	

ومن خلال النظر في هذا الجدول تتضح للمتلقي عدة حقائق عن الموسيقى الخارجية لمرثيات هاشم الرفاعي، ومن أهمها ما يلي:

١ – أن الوزن جاء عموديًا أصيلاً، فلم يخرج عن تلك الأوزان التي حصرها الخليل بن أحمد الفراهيدي للشعر العربي القديم، وهذا يدل على أصالة الشاعر وعلى اعتزازه بتراثه وتمسكه بقيمه ومبادئه، ومن ناحية أخرى يدل على ذائقته الفنية ومذهبه الشعري المحافظ.

وكما هو متوقع لم يستخدم كل الأوزان الأصيلة، فقد انتقى منها ما يناسب حسه وذوقه وما يتوافق مع طبيعة الموضوع والمعاني والأفكار في المرثيات ولذلك اقتصرت على أوزان معينة، وكانت درجة الاستعمال متفاوتة على النحو التالي:

أ – بحر كثير الاستعمال ويتمثل في بحر الكامل "٦مرات"

ب– بحور متوسطة الاستعمال وتتمثل في الرمل"٣مرات" ثم البسيط"٣ مرات"

جـ– بحور قليلة الاستعمال، فلم يستعملها إلا مرتين كالوافر والطويل أو مرةً واحدةً كالمتقارب.

وحينما ننظر إلى البحر الكامل كثير الاستعمال لدي هاشم نجد أنه من أكثر البحور استعمالاً في شعرنا العربي القديم ثم الحديث المحافظ، وقد شاع في مراثي هاشم من جراء تمسكه بقيم هذه الأشعار، كما أن هذا الوزن "الكامل" له من السعة وتقبل الزحافات والعلل ما يجعله مناسباً لأكثر الموضوعات الشعرية[١] وبخاصة فن الرثاء الذي يعتمد على وصف المشاعر والأحاسيس الحزينة، ثم تقديم كثير من معاني الحسرة والتفجع والألم، وحكى الصفات والأخلاق النبيلة لمن رحلوا، وأخيراً العزاء وما يستلزمه من ضرب الأمثال والحث على القيم والأخلاق والمبادئ، وغيرها مما جعل الشاعر يلجأ إلى هذا البحر كثيراً في مرثياته.

أما عن البحور المتوسطة الاستعمال في هذه المرثيات فتتمثل في بحري الرمل والبسيط، حيث استعمل بحر الرمل مجزوءًا وتامًا ثلاث مرات في رثاء الشهيد أحمد عبد العزيز والشهيد أحمد عمر والكاتب صلاح ذهني، وهذا البحر–

(١) انظر أ / أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي ص ٣٢٣ .

كما يقولون– هو بحر الرقة الذي يجود نظمه في موضوعات معينة منها الأحزان والأفراح والزهريات.(١)

وكذلك البحر البسيط حيث استعمله الشاعر ثلاث مرات تاماً في تعزية ذاته وتعزية زميله في ابنته وفي تأبين الرافعي وهذا البحر معروف باتساعه وشيوع استعماله وهو يناسب الرثاء المتعدد المعاني.

وأما عن البحور الثلاثة قليلة الاستعمال في مرثيات هاشم فأولها الوافر حيث استعمله في قصيدتين: قصيدة عزاء التي عزى فيها ابن عمه في خاله، ثم قصيدة حفني ناصف التي أبّن فيها هذا الأديب الكبير، وهذا البحر كثير الاستعمال في شعرنا، وهو ألين البحور، يشتد إذا شددته، ويرق إذا رققته؛ مما يجعله مناسبًا لكل الموضوعات تقريبًا ومنها الرثاء.(٢)

والثاني الطويل، حيث استعمله هاشم مرتين كذلك: الأولى في رثاء الشيخ محمد طاحون والتي بدأها بقوله: (د/ص ٤٠٠)

أهاج لنا الحزنُ العيونَ البواكيا ⁂ وأسهد موتُ الشيخ منا المآقيا

أما الأخرى فهي في كارثة مدينة قنا والتي يبدأها بقوله :(د/ص ٣٩٧)

أطل الردى من فيض تلك السحائب ⁂ ولم أرها قَبْلاً لغير المواهب

وأخيراً بحر المتقارب الذي جاءَت عليه قصيدة واحدة هي" زفرة " التي عزى فيها نفسه، وبدأها بقوله: (د/ص ٣١٨)

جَمَالُكِ يُبْهِرُ فَنَّانُهُ ⁂ وسُحْرُكِ تُقْهِرُ ألوانُهُ

(١) انظر أ / أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي ص ٣٢٣ .
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

ويمكن تفسير القلة في استعمال هذه البحور الثلاثة في رثاء هاشم رغم دورانها وكثرة استعمالها في شعرنا العربي الأصيل الذي يقتفي أثره – يمكن تفسيرها بقلة توافق أوزانها مع حسه وذوقه هنا في فن الرثاء، وأن هناك من البحور والأوزان الأخرى ما يمكن أن تقوم مقامها فيه.

٢ – أن القافية – وهي الجزء المتمم لموسيقى الشعر الخارجية – جاءت في مرثيات هاشم الرفاعي موحدة الروى إلا قصيدة فقط هي " الشهيد أحمد عبد العزيز (د/ص ٣٨٨،٣٨٩) حيث قامت على نظام المقاطع الذي ينتهي كل واحد منها بروى يختلف عن الآخر في بقية المقاطع داخل القصيدة، مما أدى إلى التنوع والتعدد فيها.

كما كانت هذه القوافي مطلقة في أغلب المرثيات أي محركة الروى، ثم مقيدة في ثلاث قصائد فقط هي مرثياته في الشهيد أحمد عبد العزيز، وصديقه أحمد عمر، وأخيرًا صلاح ذهني.

وتحليلاً لذلك الإحصاء في القافية تتضح أمام المتلقي عدة دلالات مهمة فيما يتعلق بالتشكيل الفني الموسيقي للمرثيات، ولعل أبرزها ما يلي:

* أصالة القافية وفنيتها، حيث تكررت بانتظام في وحدات موسيقية في مرثياته بما يعني الاتباع فيها، كما أنها أتت مكملة للمعاني قبلها وملائمة للسياق وغيرَ مكررة، وهذه هي أهم مقاييسها الفنية في النقد الأصيل[١]

وإن كان الشاعر قد وقع في بعض المآخذ النادرة التي تخرج على ذلك النظام كتكراره لكلمة القافية بنصها ومعناها قبل مضي العدد الذي يشترطه النقاد

(١) انظر د/ طه أبو كريشة: في ميزان النقد الأدبي ص ٣٥ ، ٣٦ .

وهو أربعة أبيات أو سبعة أو غير ذلك، ومن هذا التكرار قوله في رثاء الكاتب صلاح ذهني:(١)

بلبل بالروض شادٍ ⁂ طار مبسوط الجناحْ

ما علا في الجو حتى ⁂ خرَّ مخضوب الجناحْ

فكلمة القافية " الجناح " مكررة كما نرى بنصها ومعناها في بيتين متتاليين مما يؤكد على وقوع المؤاخذة، وهذا لا يقلل أبدًا من شأن القافية الموحدة الروى في كل المرثيات الأخرى والتي مرت بنا نماذجها على امتداد البحث.

* الدقة والتنوع في اختيار حروف الروى، فمعظم الحروف التي اختارها شاعرنا روياً لمرثياته هي من الحروف التي تصلح للروي عامة لكونها جميلة الجرس لذيذة النغم سهلة التناول مطلقة غير مقيدة في أغلبها. ويؤكد هذا أن أكثر حروف الروى تكرارًا في مرثياته هي النون "٤ مرات" والراء "مرتان" والدال "مرتان" والباء "مرتان" وهي جميعاً من الحروف التي تحققت فيها مقاييس الجمال الفني التي عرفناها آنفاً(٢)، وهي كذلك من الحروف التي شاع استعمالها روياً لدى السابقين وكثير من اللاحقين من شعرائنا العرب.

* أن استعمال القوافي على هذا النحو كان تطبيقًا لقناعاته الشخصية وتحقيقاً لمذهبه الشعري "المحافظ المجدد" وأخيرًا كان صدى لرؤيته الفنية الأصيلة التي نادى بها كثيرًا في موضوعاته الشعرية ومنها الرثاء، من ذلك ما ورد في أثناء تأبينه للرافعي وحفني ناصف، فقد استرسل في تأبين الأديب الأول إلى أن قال عن الشعر الحر وبيان رأيه فيه ما يلي:(٣)

---

(١) ديوان هاشم الرفاعي ص ٣٩٣ .

(٢) انظر أ / أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ص٣٢٥

(٣) ديوان هاشم الرفاعي ص ٤٠٢ .

ومحنة الضاد مازالت تطالعنا ⁂ بها الصحافة أو تزجى دواوينا

شعر إذا ما حججنا منه قائله ⁂ فبالجمودِ أو الإغلاقِ يرمينا

لا تستبين سنا الإلهام فيه ولا ⁂ يرضي العرائس،أو يرضي الشياطينا

لَمَّا بدا قلق الأوزان مضطربًا ⁂ فرت على خجلٍ منهُ قوافينا

أما عن الموسيقى الداخلية فهي الجزء المتحقق داخل النص الشعري في مرثيات هاشم الرفاعي، وهي تتمحور في أشياء كثيرة يلمسها المتلقي من خلال إيقاعها الرتيب، ومن أبرزها ما يلي:

١ – التصريع: وهو ظاهرة إيقاعية صوتية ترد غالبًا في البيت الأول من القصيدة، وقد عرفه علماء العروض بأنه إلحاق العروض بالضرب وزناً ورويا بزيادة أو نقصان.(١)

وقد حرص هاشم عليه كثيراً في بداية مرثياته اتباعاً لمنهج الفحول والمجيدين من شعرائنا العرب القدماء والمعاصرين، ثم للاستفادة من الطاقات الموسيقية به في شعره لكي يكون عامل جذب في مطالع القصائد لمتابعة الأبيات بعد ذلك.

ومما يمثل ذلك قوله في مطلع قصيدة رسالة في ليلة التنفيذ ما يلي: "د/ص١٦٦"

أبتاه ماذا قد يخط بناني ⁂ والسيف والجلاد منتظرانِ؟

هذا الكتاب إليك من زنزانةٍ ⁂ مقرورةٍ صخريةِ الجدرانِ

ويمثله كذلك قوله في بداية قصيدته عزاء ما يلي:(د/ص ٣٩٠)

رأيت الخطب جل عن العزاء ⁂ ففاض الدمعُ ينطق بالرثاءِ

(١) انظر د/ حسن جاد: ميزان الشاعر ص ١١ ط / نور الإسلام عام ١٩٨٤م .

ففاض الدمعُ من حزن بحاراً ⁂ كأن عيونَـــنا ينـــبوعُ مـــاءِ

وقوله في بداية رثائه للشهيد الصديق أحمد عمر ما يلي: (د/ص ٣٩١)

ردّدوا الأشعارَ في ذكرى الشهيدْ ⁂ وارفعوا الأعلام في يوم الفقيـدْ

وابعثوا الإقدام حـيًا باقيـــا ⁂ وانشدوا يافتـــية لحن الخلـودْ

وقوله في رثاء صلاح ذهني: (د/ص ٣٩٣)

تـرك الدنيا صلاحْ ⁂ ومضى عـــنا وراحْ

عصف الموت بنجمٍ ⁂ في سماء الفن لاحْ

ومما لاشك فيه أن هذه الصور من التصريع قد أضفت على القصائد لونًـــا موسيقيًا عذبًا وطابعًا موحدًا من شأنه إثراء الجانب الموسيقي في المطلع والعمل على تناغم الأجزاء فيه، مما يسهم في جذب المتلقي وشده للمتابعة.

٢ – التقسيم الأسلوبي: ومعناه أن يقسم أسلوب البيت إلى فقرتين أو أكثر سواءً اتفقت في الوزن والروي أم لا، وهذا يختلف عن حســن التقســيم الــذي يشترط فيه التساوي في الوزن والاتفاق في الروى للجمل داخل البيــت فهــو"أن يقسم المتكلم حديثه إلى فقرات متساوية في وزنها متفقة في قافيتها[١]

ومن التقسيمات الأسلوبية لــدي شــاعرنا قولــه فــي رثــاء صــديقه: (د/ص ٣٩١)

يا فتى الإقدام يا رمز الفـــدا ⁂ قد جرى الدمع دمًا فوق الخدودْ

وقوله في نفس القصيدة بعد ذلك في توجيه الزملاء ممن حضروا التأبين:

(١) انظرد/ عبد الرحمن بن عثمان الهليل: التكرار في شعر الخنساء "دراسة فنية" ص ١٣٠ ط / دار المؤيد " السعودية " رقم ١ عام ١٩٩٩م .

يا جنود المجد، يا أُسْدَ الشرى ⁂ يا شبابًا ساد من عهدٍ بعيدْ

وقوله في رثاء عمه ما يلي: (د/ص ٣٩٦)

والعين تهمي ، والدموع ذوارف ⁂ والناس خلفك شفها الإقدام

وقوله في كارثة قنا ما يلي : (د/ص ٣٩٨)

فما طلعت شمس، ولا أشرق الضحى ⁂ على غير فرارٍ من الخطب هاربِ

وقوله في ختام قصيدته الزهرة الذابلة ما يلي: (د/ص ٣٩٩)

للصابرين غداة الروع أجرهم ⁂ وللشدائد عند الله عُقْباها

يا نضر الله قبراً ضم أعظمها ⁂ ويا عطر الله بين الترب مثواها

ومن التقسيمات الأسلوبية لدي هاشم أيضًا ما وصل فيها إلى حسن التقسيم من ذلك ما ورد في رثاء الشيخ طاحون في قوله : (د/ص ٤٠٠)

بكيناه بالآلام ملء نفوسنا ⁂ وبالحزن قتالاً، وبالدمع جاريا

ويا دهر لم تدرك فجيعتنا به ⁂ لقد كنت جباراً، وقد كنت قاسيا

وقوله بعد ذلك في نفس القصيدة:

ولا خير إلا كان للخير رائداً ⁂ ولا جرح إلا كان للجرح آسيا

وهكذا تكررت هذه الظاهرة الأسلوبية كثيراً في شعر الرثاء لدي هاشم، ومما لاشك فيه أن لها – فضلاً عن السر البلاغي – وقعًا موسيقيًا كبيرًا في آذان المتلقين وقلوبهم، فهي من ألوان الموسيقى الداخلية في الشعر.

٣ – التكرار: وهو ظاهرة لغوية إيقاعية تتمثل في الإعادة لبعض الحروف أو الكلمات أو الجمل اللغوية داخل النص الإبداعي، وهو وثيق الصلة بالرثاء كما

يقول ابن رشيق: " وأَوْلى ما تكرر فيه الكلام بابُ الرثاء ؛ لمكانِ الفجيعة وشـــدةِ القرحة التي يجدها المتفجعُ، وهو كثير..."(١)

وقد ورد لدي هاشم في مرثياته، وأتى على كل المستويات اللغوية، وكان لأهداف بلاغية وموسيقية في نفس الوقت.

ومن تكراره لبعض الحروف ما ورد في قوله للزملاء فـــي أثنـــاء تـــأبين رائدهم جميعاً أحمد عمر ما يلي: (د/ص ٣٩١)

يا جنود المجد يا أسد الشرى ⁂ يا شبابًا ساد من عهدٍ بعيـــدْ

فهو قد كرر حرف النداء "يا" ثلاث مرات، وذلك للتنويـــه بهـــم والإشـــادة بشجاعتهم مع زميلهم الشهيد قبل موته، ثم للفت أنظارهم لما سيأتي بعد ذلك في البيت التالي من الدعوة إلى عدم الخلاف فيما بينهم:

أجمعوا الآراءَ فيما بينكم ⁂ وارفعوا الرأس لنبني من جديـدْ

ومما لاشك فيه أن ذلك التكرار قد أحدث نوعًا من الموسيقية داخل الأبيات مما ضاعف من الموسيقى بشكل عام.

ومن تكرار الكلمات قوله في رثاء زميله أبي الفتوح: (د/ص ٣٩٤)

لو كان يحمل بي التصبر عن فتى ⁂ أجد التصبر عنك غير صواب

فهو قد كرر كلمة " التصبر" للدلالة على عظم الفجيعة وعدم صبره عليها، وقد أضفى هذا التكرار لونًا من الموسيقى على البيت كذلك.

ومن تكرار الجمل ما ورد في قوله: (د/ص ٣٩٠)

رأيت الخطب جل عن العزاء ⁂ ففاض الدمع ينطق بالرثـــاء

---

(١) العمدة لابن رشيق القيرواني جـــ ٢ ص٧٦ "بتصرف"

ففاض الدمع من حزن بحاراً ⁂ كأن عيونـــنا ينـبوعُ ماء

فهو قد كرر جملة "ففاض الدمع" التي أفادت حزنه الشديد علـى زميلـه الراحل، وأدت دوراً آخر يتمثل في الإيقاع الموسيقى الذي تحقق من جراء هـذا التكرار للجملة في البيتين.

ومن التكرار الموسيقى أيضًا للجمل قوله: (د/ص ٣٩٤)

وطوتكَ أيدٍ للمَنَون وما طوت ⁂ غيرَ المؤملِ ، جامعَ الآدابِ

وهناك صور كثيرة من التكرار امتلأت بها قصائد الرثاء لدي شاعرنا فـي ديوانه مما يؤكد على أصالته واتباعه لكل ما يعمل على تقوية الجانب الإيقـاعي لشعره عامة وللرثاء خاصة.

٤ – الصور البديعية: وهي من عناصر الموسيقى الداخلية فـي الشـعر، فهي ليست للزينة والتحسين الشكلي أو الداخلي للكلام فقط، بل هي بالإضافة إلى ذلك تؤدى مهمة التنسيق الصوتي والإيقاع المتناغم الذي يحدث لمـا بهـا مـن التشابه والتماثل مع الاختلاف المعنوي في بعض الصور ثم التقابل والتضاد فـي أخرى، وكذلك التوازي والتساوي في غير ما سبق.(١)

وبالنظر إلى مرثيات هاشم الرفاعي نجد أنه قد استعمل هذه الصور، وأنها كانت طبيعية تأتي لديه عفو الخاطر من غير تعمد لها أو تصنع لمجـرد الزينـة فقط، ومن ثم كانت مناسبة في كل المرثيات للمعاني، كما كان لهـا دورهـا فـي الإيقاع الموسيقى الداخلي للأبيات.

(١) انظرد/ عبد الواحد الشيخ: البديع والتوازي ص ٣٠ ط/ الإشعاع الفني"الإسكندرية " رقم ١ عام ١٩٩٩م.

ومن أكثر الصور البديعية شيوعًا ودورانًا في مرثياته الطباق، فقد استعمل في معظم الأعمال، وكان ذلك بالإيجاب أو بالسلب، ومن ذلك ما ورد في رثاء صلاح ذهني في قوله: (د/ص ٣٩٣)

ما استرحنا حين أودى ⁂ والذي مات استراحْ

فالإيقاع قائم هنا على المطابقة بين حاله هو وحال الفقيد، ثم الربط بين آخر البيت وأوله فيما يسمى برد العجز على الصدر، هذا فضلاً عن الوزن.

وكذلك الأمر في رثاء صديقه أبي الفتوح في قوله: (د/ص ٣٩٤)

وطوتكَ أيدٍ للمنونِ وما طوت ⁂ غيرَ المؤمَّل ، جامعَ الآدابِ

وقوله في رثاء عمه في ختام القصيدة ما يلي: (د/ص ٣٩٦)

وتجهمت كل الوجوه ووجهه ⁂ للقاء جنة ربه بَسَّامُ

بجوار ربك نم ، فقد أسهدتنا ⁂ وأخو الأسى والحزن كيف ينامُ؟

ففي كل من البيتين طباق ، حيث طابق في الأول بين لفظي (تجهمت وبسام) وطابق في الثاني بين كلمتي (نم وأسهدتنا) لوصف حالة الحزن العام وإضافة الموسيقى للأبيات.

وقوله في رثاء حفني ناصف ما يلي : (د/ص ٤٠٣)

عرفتك في ذرا العلياء سفرًا ⁂ سمت آياته لفظًا ومعنى

ولا يخفى ما بالبيت من المطابقة بين كلمتي:اللفظ والمعنى لإفادة الشمول وتقوية الإيقاع والنغم.

ومن الصور البديعية عنده أيضًا الجناس الذي يقوم الإيقاع فيه على التماثل اللفظي والاختلاف المعنوي، وقد ورد هنا في قوله: (د/ص ٣٩١)

يا فتى الإقدام يا رمز الفدا ⁂ قد جرى الدمع دما فوق الخدودْ

ففي الشطر الثاني جناس ناقص بين "الدمع، والدم "

وكذلك في قوله: (د/ص ٣٨٦)

هذا رثائي والفؤاد كأنه ⁂ عين لها الدمُ والحشاشةُ أدمع

ومن الصور كذلك المقابلة التي يقوم إيقاعها على التقابل والتضاد بين أكثر من معنى مثل قول هاشم في رثاء والده: (د/ص ٣٨٧)

إن تضحك اليوم امرأً وتسره ⁂ فغداً إليه المبكيات ستسرع

وإذا سقته اليوم شهداً ، في غدٍ ⁂ يأتيه كأس النائبات المترع

فهو يتحدث عن تغير الأحوال في الدنيا، فمن يضحك فيها اليوم، سرعان ما يبكي غداً، ومن يشرب شهدها يوماً؛ سيجرع كأس المر بعده، والإيقاع كما نرى قائم على التقابل والتضاد في كل بيت منهما.

ومن صور البديع الواردة في مرثيات هاشم اللف والنشر المرتب الذي استعمله في رثاء زميله كما في قوله في الختام: (د/ص ٣٩٥)

يا رب ألهمنا وعوضنا به ⁂ صبراً وسلواناً وحسن ثواب

حيث ذكر في الشطر الأول الإلهام والعِوَض، ثم عرض ما يناسبهما مرتبًا في الشطر الثاني، حيث الصبر والسلوان يناسبان الإلهام، وحسن الثواب يناسب العوض، ولا يخفى ما لذلك من الإيقاع الذي جاء من التناسب والتناسق في الشكل الفني.

ومن اللف والنشر المرتب أيضًا قوله في تأبين الرافعي: (د/ص ٤٠٢)

للدين والضاد قد سطرتَهَا عُمُدًا ⁂ لما عرفتهما أقوى صياصينا

هذا من الذل والأغلال يعصمنا ⁂ وتلك تحفظنا روحًا وتكوينا

فهو يتحدث عن مؤلفات الرافعي العظيمة التي قدمها للدين واللغة العربية، ثم ذكر ما يناسبهما مرتبًا في البيت الثاني؛ فالشطر الأول يناسب الدين، والثاني يناسب اللغة.

وهكذا تعددت ألوان الموسيقى لدي هاشم في مرثياته، فهي خارجية تتمثل في الأوزان والقوافي الأصيلة ثم داخلية تنبع من تركيزه على بعض الظواهر الفنية المركوزة داخل النص الأدبي للمرثيات ومن أهمها التصريع وتقسيم الأسلوب والتكرار والبديع وغيرها مما يؤكد على رقي حسه ومشاعره، ثم تمكنه من أداته الفنية الشعرية، والتزامه بكل التقاليد الفنية الأصيلة الواردة عن شعرائنا القدماء الأعلام، ثم رواد نهضتنا الأدبية والشعرية وعلى رأسهم شوقي وحافظ ومحرم وعلي الجارم وسواهم.

الخاتمة

وبعد، فمن خلال ما سبق عرضه على امتداد هذا البحث توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج العامة ويمكن بيانها فيما يلي:

* أن موضوعات الشعر لدي هاشم الرفاعي لا تقتصر على تلك الموضوعات التي عرف بها لدي كثيرين من المتلقين كالوطنية والقومية والشعر الإسلامي وشعر الطبيعة فقط ، بل يضاف إليها هذا الموضوع الوجداني الاجتماعي وهو شعر الرثاء الذي عبر فيه عن مشاعره وأحزانه وآلامه، وشارك به في مجتمعه عند نزول الملمات وحلول المصائب وتأبين الأعلام والرواد.

* أن هذا الموضوع الشعري لدي هاشم له مكانة كبرى في شعره خاصة وفي شعرنا الحديث عامة؛ ذلك أنه أكثر من قصائده وأشعاره بالقياس إلى حياته القصيرة، وأقام هذه الآثار على كثير من القيم الفنية الأصيلة في تراثنا العربي، ثم إنه شارك بها متعففاً في مناسبات اجتماعية كثيرة تتصل بالحياة العامة والخاصة.

* أن دوافع الشاعر إلى هذا الموضوع والإكثار منه متعددة، من أبرزها الموت الذي حل بكثير من خاصته وأصحابه، وقد تفاعل مع ذلك، وقدم– وهو الشاعر المكثار– سيلاً من قصائد الرثاء التي تتسم بالصدق وحرارة العاطفة، وكذلك الروح الصوفية التي أكسبته معرفة بحقيقة الموت ودفعته إلى الإكثار منه في شعره والمشاركة في مناسباته، وأخيرًا تلبية الدعوة لتأبين بعض من الأعلام والرواد الذين رحلوا قبل ذلك.

* تتمثل الموضوعات التي قامت عليها مرثيات الرفاعي في رثاء الأهل والأقارب كأبيه وجده وعمه وسواهم، ثم رثاء الأصدقاء والمعارف كأحمد عمر وأبي الفتوح والشيخ محمد طاحون وغيرهم، ثم تأبين الرواد والأعلام كالرافعي وحفني ناصف وصلاح ذهني وغيرهم، ثم رثاء المدن والمؤسسات مثل مدينة قنا

في أقصى الصعيد والأزهر الشريف، وختاماُ بكاء النفس وتعزية الذات وفيه قام برثاء نفسه عند استشعار الموت وتعزيتها عند نزول الملمات به أو وقوعه في بعض الإخفاقات.

* أن الشاعر في بناء معظم المرثيات دخل إلى موضوعه مباشرة واستغنى عن الغزل والمقدمات الطللية، وهو في ذلك يراعى طبيعة موضوعه ويؤكد انتماءَه إلى تيار المحافظين المجددين، كما أنه قام بتحقيق الوحدة الموضوعية في كثير من قصائده وتحقيق الوحدة العضوية في بعض منها، وأخيرًا كان يختتم قصائد الرثاء هذه بمقاطع شعرية تشتمل على بعض الحكم أو الدعوات أو الوصايا مما يقوى من شأن هذه المرثيات عند تلقيها.

* أن المعاني الشعرية التي قامت عليها مرثيات هاشم هي نفس المعاني التي دارت في هذا الموضوع لدي الشعراء السابقين والمعاصرين في الندب والعزاء والتأبين وإن تميزت لديه بالسهولة والوضوح والصدق الفني والتأثر بالمعاني الإسلامية واشتمالها على المبالغات المقبولة وغير ذلك مما جعل لهذا الشاعر شخصيته في هذا الموضوع الشعري الكبير.

* أبرزت الدراسة بعض الظواهر الأسلوبية في مرثيات هاشم الرفاعي ومن أشهرها الأصالة والوضوح والدقة والتناسب، ثم التواصل النصي مع التراث بالاقتباس والتضمين، وكذلك التوشية ببعض الحكم والأمثال المستمدة من اطلاعاته وقراءاته العميقة في النصوص الدينية والأدبية الرفيعة، ثم محاولة الاستفادة من ذلك في حكمه.

* أن الشاعر استعان في جميع مرثياته بالصور الشعرية وما تتضمنه من الخيال كالتشبيه والاستعارة والكناية وغيرها، ووظف ذلك توظيفًا فنيًا؛ ومن ثم عبرت القصائد باقتدار عن مشاعره وأحزانه، وأدت دورها بنجاح في مناسباتها،

ومن أبرز خصائص هذه الصور القرب والوضوح والحسية والشمول والاعتماد على التراث.

* أن الموسيقى الشعرية لهذه المرثيات تقوم في جانبها الخارجي على الأصالة والمحافظة حيث التزم الشاعر بالبحور الشعرية القديمة، والتزم بالقافية الموحدة في أغلبها، وهذا أسهم في التكرار النغمي الموحد، وأضفى على المرثيات رونقًا وجمالاً، وفي الجانب الداخلي للموسيقى التزم الشاعر بعدد من الظواهر الأسلوبية والبديعية التي تضاعف الموسيقى وتجذب المتلقي فضلاً عن دورها اللغوي البلاغي، ومن أبرز هذه الظواهر التصريع والتقسيم الأسلوبي والتكرار والصور البديعية وغيرها.

هذا وإني لأرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت فيما قصدت، إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه.

الباحث

المصادر والمراجع

أولاً : الكتب والدواوين :

١- الأدب ومذاهبه. د/ محمد مندور ط / نهضة مصر "القاهرة" د.ت.

٢- أسس النقد الأدبي. عند العرب د/ أحمد بدوي ط / نهضة مصر "القاهرة" عام ١٩٩٤م.

٣- أصول النقد الأدبي. أ / أحمد الشايب ط / النهضة المصرية (القاهرة) رقم ١٠ عام ١٩٩٩م.

٤- البديع والتوازي . د/ عبد الواحد الشيخ ط / الإشعاع الفني (الإسكندرية) رقم ١ عام ١٩٩٩ م .

٥- بغية الإيضاح جـ ٤ . أ / عبد المتعال الصعيدي ط / مكتبة الآداب "القاهرة" د.ت .

٦- التكرار في شعر الخنساء (دراسة فنية) د/عبد الرحمن بن عثمان الهليل ط / دار المؤيد (السعودية) رقم ١ عام ١٩٩٩م.

٧- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ت أ/علي محمد البجاوي ط/ نهضة مصر "القاهرة" د.ت.

٨- الحياة الأدبية في عصري الجاهلية والإسلام . د/ محمد عبد المنعم خفاجي و د/ صلاح عبد التواب ط/الكليات الأزهرية "القاهرة" د.ت.

٩- دراسات أدبية جـ ١ د/ محمد رجب البيومي ط/ مطبعة السعادة "القاهرة" عام ١٩٨٢م .

١٠- ديوان شيخ شعراء العربية ت د/ محمد عبد المنعم خفاجي ود/عبد العزيز شرف وأ/سعيد السحار ط/ مكتبة مصر"القاهرة" عام ١٩٩٤م.

١١- ديوان عنترة تقديم أ / كرم البستاني ط/ دار صادر (بيروت) د.ت.

١٢- ديوان هاشم الرفاعي"الأعمال الكاملة" تقديم أ/ عبد الرحيم الرفاعي ط/ دار الإيمان "المنصورة" رقم ١ عام ١٩٩٦م .

١٣- الرثاء د/ شوقي ضيف ط / دار المعارف (القاهرة) رقم ٤ عام ١٩٨٧م، سلسلة فنون الأدب رقم ٢ .

١٤- رثاء الذات في الخطاب الشعري الجاهلي د/ محمد رمضان زامل ط/ هيئة قصور الثقافة عام ٢٠١٥م سلسلة كتابات نقدية رقم/٢٣١

١٥- الرثاء في الشعر العربي د/ محمود حسن أبو ناجي ط/ مكتبة الحياة (بيروت) رقم/ ١ عام ١٩٨١م .

١٦- رسالة في ليلة التنفيذ . أ / مجدي الشهاوي ط / مكتبة الإيمان "المنصورة" رقم ١ عام ١٩٩٣م .

١٧- الشوقيات لأحمد شوقي تقديم د/ محمد حسين هيكل ط/ مكتبة مصر "القاهرة" د.ت .

١٨- الشاعر الشهيد هاشم الرفاعي أ / محمود كامل حته ط / دار المعارف "القاهرة" عام ١٩٦١م .

١٩- الصورة في شعر الديوانيين د/ محمد علي هدية ط / المطبعة الفنية "القاهرة" رقم ١ عام ١٩٨٤م .

٢٠- العمدة لابن رشيق القيرواني ت . أ / محمد محي الدين عبد الحميد ط / دار الجيل "بيروت" د.ت .

٢١- في الأدب والنقد . د/ شوقي ضيف ط / دار المعارف رقم ١ عام ١٩٩٩م .

٢٢- في ميزان النقد الأدبي د/ طه أبو كريشة ط / المليجي "القاهرة" عام ١٩٧٦م .

٢٣- قضايا النقد الأدبي الحديث د/ محمد السعدي فرهود ط/ مطبعة زهران "القاهرة" عام ١٩٦٨م .

٢٤- قاموس الأدب العربي الحديث إشراف د/ حمدي السكوت ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب رقم ٢ عام ٢٠١٥م .

٢٥- مدرسة البعث وأثرها في الشعر الحديث د/ عبد العزيز الدسوقي ط/ الأمل للطباعة، نشر هيئة قصور الثقافة عام ١٩٩٩م سلسلة "كتابات نقدية"رقم ٩٥.

٢٦- مدارس النقد الأدبي الحديث د/ عبد المنعم خفاجي ط / الدار المصرية اللبنانية رقم ١ عام ١٩٩٥م .

٢٧- مع الشعراء المعاصرين في مصر . د/ عبد الحي دياب ط / الدار القومية للطباعة "القاهرة" . د.ت .

٢٨- مناهج النقد العربي الحديث د/ إبراهيم عوض ط / دار المنار "القاهرة" عام ٢٠٠٣م .

٢٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري جـ ٤ ت . د/ إحسان عباس ط / دار صادر "بيروت" د.ت .

٣٠- هاشم الرفاعي . د/ حامد طاهر ط/ مطبعة العمرانية للأوفست، نشر/ مكتبة الآداب "القاهرة"، سلسلة "شاعر ومختارات" رقم١

ثانياً : الدوريات والمواقع :

٣١- مجلة الرسالة : العدد /١٩١ بتاريخ ١٩٣٧/٣/١م : مقال "موضوعات الأدب في الأدبين " أ / فخري أبو السعود ص ٣٢٩ وما بعدها .

٣٢- مجلة منبر الإسلام العدد /٥ جمادي الأولى عام ١٣٨٨هـ : مقال/ شاعر الثورة في شعره الديني أ/علي الجمبلاطي ص ٣١٦/.٣١٩

٣٣- مجلة كلية الدراسات الإسلامية للبنين بالقاهرة العدد/ ١٤-عام ١٩٩٦م بحث " رثاء النفس في الشعر القديم د/ حسن عبد السلام ص ٥٠٣ وما بعدها.

٣٤- جريدة الجمهورية العدد / ٢٠٢١ بتاريخ ١٩٥٩/٧/٣م ص.٣

٣٥- موقع " ويكيبيديا " الإلكتروني.

٣٦- موقع " لها أون لاين " الإلكتروني.

الفهـــــرس

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١	ملخص	٤٥١١
٢	Abstract	٤٥١٢
٣	المقدمة	٤٥١٣
٤	تمهيد الشاعر هاشم الرفاعي	٤٥١٥
٥	١ ـ حياته	٤٥١٥
٦	٢ ـ شعره	٤٥١٦
٧	٣ ـ منزلته الأدبية	٤٥١٨
٨	الفصل الأول المحتوى الموضوعي للمرثيات	٤٥٢١
٩	تقديم	٤٥٢١
١٠	أولاً : دوافع المرثيات	٤٥٢٢
١١	ثانياً: محتوى المرثيات	٤٥٢٧
١٢	الفصل الثاني التشكيل الفني للمرثيات	٤٥٥٥
١٣	المبحث الأول : البناء الفني للقصيدة	٤٥٥٥
١٤	المبحث الثاني : الأفكار والمعاني	٤٥٦٥
١٥	المبحث الثالث : الألفاظ والأساليب	٤٥٧٣
١٦	المبحث الرابـــع : الصور والأخيلة	٤٥٨٥
١٧	المبحث الخامس: الوزن والموسيقى	٤٥٩٢
١٨	الخاتمة	٤٦٠٦
١٩	المصادر والمراجع	٤٦٠٩
٢٠	الفهرس	٤٦١٣